

البابا شنودة الثالث

بعض شخصيات الكتاب

الجزء الأول

**Some Biblical personalities
by H.H.pope Shenouda III**

أغسطس

2005م

اسم الكتاب: بعض شخصيات الكتاب (الجزء الأول)

المؤلف: قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث

الناشر: الكلية الإكليريكية بالكاتدرائية بالعباسية- القاهرة

المطبعة: الأنبا رويس الأوفست بالعباسية- القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٢٠٠٥ / ١٤٢٠٢

I.S.B.N. 977-5345-87-1

بابا الإسكندرية وبطريق الكرازة المرقسية الـ ١١٧

مقدمة الكتاب

أصدرنا لك من قبل بعض الكتب عن شخصيات من الكتاب، مثل:

آدم وحواء... قايين وهابيل.

يعقوب ويوسف.

موسى وفرعون.

يونان النبي.

أيوب الصديق وتجربته.

واليوم نكتب لك في هذا الكتاب، بإيجاز عن شخصيات كتابية أخرى،

هي:

إبراهيم أبو الآباء والأنبياء.

لوط (مع عمه إبراهيم).

صموئيل النبي، وعلاقته بشاول.

نحميا وعزرا.

إنها مجرد محاضرات تحوي تأملات عن كل هؤلاء.

خشينا عليها من الضياع أو الفقد، لذلك رأينا أن نصدرها في هذا الكتاب.

والى اللقاء مع شخصيات أخرى بمشيئة الرب.

اللبابا شنوده الثالث

أغسطس ٢٠٠٥م

إبراهيم أبو الآباء والأنبياء

أهمية أبينا إبراهيم

حينما نتحدث عن أبينا إبراهيم، نذكر أهمية شخصيته:

١- إنه الشخص الذي تجتمع حوله ثلاث ديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام.

٢- وكان اليهود يفتخرون باستمرار أنهم أبناء إبراهيم، حتى وبَحَهُم القديس يوحنا المعمدان قائلاً: "لَا تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحَجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمَ" (مت ٣: ٩).

٣- نقول أيضًا إن الأبرار بعد موتهم يذهبون إلى أحضان إبراهيم. وقد ذكر الكتاب أن لعازر المسكين لما مات "حَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ" والغني "رَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ" (لو ١٦: ٢٢، ٢٣).

٤- وإبراهيم هو أول شخص عَيَّرَ الله اسمه في مباركته. كان اسمه أَبْرَامَ فدعاه "إبراهيم" وقال له: "لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِكُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ" (تك ١٧: ٥).

٥- ومن أجمل ما يُقال عن إبراهيم: قول الله عن نفسه لموسى النبي: "أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ، إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ" (خر ٣: ٦). وقد ذكر السيد المسيح هذه الصفة "إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ..." في حوار مع الصدوقيين (مت ٢٢: ٣٢).

- ٦- ولا ننسى إطلاقاً أن ربنا يسوع المسيح قد جاء من نسل إبراهيم. كما ورد عنه في سلسلة الأنساب أنه "ابن دَاوُدَ ابْنِ إبراهيم" (مت ١: ١).
- ٧- وقد بارك الله إبراهيم وقال له بالأكثر: "تَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرض" (تك ١٢: ٣) "وَيَتَبَارَكَ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأرض" (تك ٢٢: ١٨).
- ٨- ولما قَبِلَ الرب توبة زكا العشار، ودخل بيته، تَدَمَّرَ اليهود، فقال: "الْيَوْمَ حَصَلَ خَلَاصٌ لِهَذَا النِّبْتِ إِذْ هُوَ أَيْضًا ابْنُ إبراهيم" (لو ١٩: ٩).
- ٩- وفي بنوة المؤمنين جميعاً لإبراهيم، قال القديس بولس الرسول: "الَّذِينَ هُمْ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْلَيْكَ هُمْ بَنُو إبراهيم" (غلا ٣: ٧).
- ١٠- ومن عظمة إبراهيم، لَقَبُهُ أَبُو الآبَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ.

دعوته

في يوم لا يعرفه، دعاه الله. وقال له: "أَذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأرضِ الَّتِي أُرِيكَ..." (تك ١٢: ١).

إن الله يختار من يشاء، ويدعو من يشاء، للهدف الذي يريده.

وكان إبراهيم وقتذاك في أور الكلدانيين ما بين النهرين.

كان "ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً" حين دعاه الله (تك ١٢: ٤).

كل حياته قبل دعوة الله له لا نعرف عنها شيئاً.

إنها أيام مجهولة، أو غير مهمة في التاريخ. فنحن لا نعرف ماذا كانت

حياته في أور. إنما حياته الحقيقية في الكتاب تبدأ بدعوته، وأصبحت بهذه الدعوة جديرة بالتسجيل...

أول شيء كان في دعوته، هو ترك البيئة الشريرة.

كانت أور ذات حضارة كبيرة، ولكنها كانت وثنية. وكان من صالح إبراهيم أن يترك تلك البيئة، لكي يحيا في جو طاهر مع الله. ليس فقط المكان، إنما كل العشيرة، كل عواطف القرابة الجسدية أيضًا.

وترك البيئة الخاطئة، تَحَدَّثَ عنه داود النبي في المزمور الأول عن الإنسان البار الذي: "الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الْأَشْرَارِ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ، وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ يَجْلِسْ" (مز ١ : ١). وقال أيضًا القديس بولس الرسول: "إِنَّ الْمَعَاشِرَاتِ الرَّدِيَّةَ تُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ الْجَيِّدَةَ" (١كو ١٥ : ٣٣). وفي الشريعة أَمَرَ الربُّ بالبُعد عن الخُطاة الوثنية والنساء الغريبات. وَقَدَّمَ لَنَا الربُّ خبرة في حياة سليمان وشمشون. فقليل: "وَكَانَ فِي زَمَانٍ شَيْخُوخَةً سُلَيْمَانُ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ" (١مل ١١ : ٤). وهكذا أضاع شمشون نذره وأذله الأعداء نتيجة لخطئته الخاطئة مع النساء الغريبات. (قض ١٦).

وحَسَبَ أَمْرَ الله، ترك أَبْرَامَ أرضه وبيت أبيه.

أول هجرة

وكان خروج إبراهيم من أرضه، أول هجرة مقدسة.

كانت هجرة بأمر الله. لم يَسعَ إليها أبونا إبراهيم. ولم تكن تُحقّق إحدى شهواته أو مَصَالِحَهُ. بل لم يكن يعرف إلى أين يذهب. (عب ١١ : ٨). بل كان الغرض أن يلتقي بالله في مكان يمكن أن يعبد فيه.

مثلا هجرات أخرى ذكرها الكتاب وكانت للخير:

كهجرة رفقة التي تَرَكَت بيت أبيها لتذهب إلى إسحاق زوجةً له. وكُلُّ عروس تطيع قول الكتاب: "اِسْمَعِي يَا بِنْتُ وَأَنْظُرِي، وَأَمِيلِي أُذُنَكَ، وَأَنْسِي شَعْبَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ..." (مز ٤٥ : ١٠). ونفس هذه العبارة من المزمور استخدمها القديس جيروم في مجال رهباني. فكل الرهبان أطاعوا نفس العبارة التي قيلت لأبينا إبراهيم: "اَذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ" (تك ١٢ : ١).

ونفس هذه الهجرة رمز للكنيسة التي هجرت أمور العالم لتتحد بالرب. ورمز أيضًا لحياة الغربة وحياة التكريس، والدعوة الإلهية، وتنفيذ مشيئة الله. كما قيل عنه: "لَمَّا دُعِيَ أَطَاعَ" (عب ١١ : ٨).

وكانت دعوة مصحوبة بوعد، أي ببركة، وبركة شاملة:

البركة

قال له الرب: "فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأَعْظَمَ اسْمَكَ، وَتَكُونُ بَرَكَةً. وَأُبَارِكَ مُبَارِكَكَ، وَلَاعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ" (تك ١٢ : ٣، ٢).

منذ أن خلق الله الإنسان، منحه البركة. هكذا بارك آدم وحواء ببركة السلطة والكثر (تك ١: ٢٨). ونفس البركة منحها لنوح وأولاده (تك ٩: ١، ٢). وهذه هي البركة الثالثة منحها لإبراهيم وبنيه.

جعله الرب مباركا. وأيضا يكون بركة.

جميل أن يكون أبناء الله بركة للزمان الذي يعيشون فيه، وأيضا للمكان الذي يحلون فيه. مثلما كان إيليا بركة في بيت أرملة صيدا. وإذا: "كُوَارَ الدَّقِيقِ لَا يَفْرُغُ، وَكُوَزَ الزَّيْتِ لَا يَنْقُصُ" طول مدة المجاعة (١مل ١٧: ١٤). كما أقام ابنها من الموت.

كذلك كان أليشع بركة في بيت الشونمية (٢مل ٤).

وكان يوسف الصديق بركة في بيت فوطيفار. ويقول الكتاب: "أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَهُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ" (تك ٣٩: ٥). بل كان يوسف أيضا بركة لكل أرض مصر، فَجَبَتْ مِنَ الْمَجَاعَةِ، وَأَشْبَعَتِ الشُّعُوبَ الْمَحِيطَةَ...

وفوق الكل كانت العائلة المقدسة بركة في أرض مصر. وقال الرب: "مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ" (إش ١٩: ٢٥). وصار "مَذْبَحٌ لِلرَّبِّ فِي وَسْطِ أَرْضِ مِصْرَ، وَعَمُودٌ لِلرَّبِّ عِنْدَ تَحْمِهَا" وصار الرب يُعرف في أرض مصر، وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ الرَّبَّ" (إش ١٩: ١٩، ٢١).

جميل أن الرب يبارك أولاده، ويبارك الناس بهم.

هكذا كان الآباء يباركون أبناءهم. وكان الأبناء يتهافتون على بركة آبائهم، كما تنافس يعقوب وعيسو على نوال بركة أبيهما إسحاق (تك ٢٧). وكما قدم يوسف الصديق ابنه أفرام ومنسى لأبيه يعقوب لكي يباركهما. واهتم بوضع يد أبيه اليمنى على أكبرهما (تك ٤٨ : ٨ - ١٩).

بالإضافة إلى بركة الآباء، كانت بركة الأنبياء والكهنة.

وأمثلتها كثيرة جدًا في الكتاب المقدس. وقد لقّن الرب موسى وهارون بركة يباركون بها الشعب. وأنتم تعرفون أن كل اجتماع في الكنيسة إنما يُختتم بالبركة. فيقول الكاهن للشعب: "محبة الله الآب، ونعمة ابنه الوحيد، وشركة وموهبة وعطية الروح القدس، تكون مع جميعكم" (٢كو ١٣ : ١٤).

المكان

على أن الله بارك أبانا إبراهيم في المكان الذي اختاره الرب.

كانت بركة الرب له نتيجة لهجرته التي أمره الرب بها، وفي الموضع الذي عَيَّنَهُ الرب. يُذكرنا هذا بتلك العبارة التي قيلت في سفر النشيد: "... هُنَالِكَ أُعْطِيَكَ حَيِّي" (نش ٧ : ١٢). ويقول الرب للمريمتين بعد القيامة: "قُولَا لِإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي" (مت ٢٨ : ١٠).

إن الله يحدد المكان الذي نراه فيه، والذي يعطينا فيه حب. فليس كل مكان يمجّد الله. وليس كل مكان نرى فيه الله.

يذكرنا هذا أيضاً بأن بعض الكهنة يختارون مكاناً يخدمون الله فيه. وقد يصرون على مكان مُعين، ويرفضون مكاناً آخر!!

إن إبراهيم مثال للشخص الذي لا يختار لنفسه مكاناً. لا من جهة البقاء في أور، ولا من جهة المكان الذي هاجر إليه، ولا المكان الذي يعيش فيه عندما حدث خلاف بين رعاته ورعاة لوط، بل ترك الأمر لحرية اختيار لوط (تك ١٣: ٨، ٩).

المكان الذي يختاره الرب لنا، هو المكان الأفضل، إن كانت لنا حياة التسليم. وهكذا حدث حينما اختار الله لبولس الرسول أن يخدم في مقدونية (أع ١٦: ٦-١٠).

قال الرب لأبْرَامَ: "اذهَبْ... إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ" (تك ١٢: ١). ولم يُره الأرض وقتذاك. وتركه يذهب وراءه إلى المجهول.

يكفي دعوة الرب أن نذهب وراءه. وليس لنا أن نتأكد من المكان. المكان الذي يكون الرب فيه، ويرعانا فيه، هو المكان الصالح.

قال الرب لسمعان وأندراوس: "هَلُمَّ وَرَائِي..." (مت ٤: ١٩). ولم يَقُلْ لهما إلى أين. ولا هما سألاه إلى أين؟! وإنما تَرَكا شباكهما وتبعاه. وقال لمتى- وهو في مكان الجباية - "اتَّبِعْنِي" (مت ٩: ٩). ولم يَقُلْ له إلى أين يتبعه، ولا سأله متى عن ذلك. وإنما: "قَامَ وَتَبِعَهُ"...

وهكذا فعل أبونا إبراهيم، وكأنه يقول للرب: أنا لا أسألك يا رب عن المكان الذي تقودني إليه. يكفي أنك تكون معي فيه...

قد يحدد الرب مكانًا يختلي فيه مع من يحبه. كما اختار جبل سيناء حيث التقى مع موسى النبي، وسَلَّمَه الشريعة، وحيث لمع وجه موسى بالنور، حتى احتاج إلى بُرَقع ليستطيع الناس أن ينظروا إليه (خر ٣٤: ٢٩ - ٣٥).

لقد اختار لوط لنفسه الأرض المُعْشَبَة، وكان اختيارًا رديئًا.

وقال عنه الكتاب: "كَانَ الْبَارُّ بِالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ يُعَذِّبُ يَوْمًا فَيَوْمًا نَفْسَهُ الْبَارَّةَ بِالْأَفْعَالِ الْإِثْمِيَّةِ" (٢بط ٢: ٨). ثم حدثت له هناك تجربتان: الأولى سبي سادوم، حيث وقع مع أهلها في السبي، ونجاه أَبْرَامَ الذي لم يختار لنفسه مكانًا (تك ١٤: ١١ - ١٦). والثانية حرق سادوم ونجاته بأعجوبة بشفاعة إبراهيم.

نلاحظ في دعوة إبراهيم مشكلة رفقاءه. إذ أمره الرب ليس فقط أن يترك أرضه، وإنما أيضًا "بيت أبيه". ولكنه سلك في ذلك بالتدرج. إذ أنه ترك أرضه. ولكنه كان معه أبوه تارح، ولوط ابن أخيه هارون (تك ١١: ٣١). (تك ١٢: ٥) ... ولذلك لم يسترح إلا بعد أن انفصل عن هذين: عن أبيه تارح الذي مات في حاران (تك ١١: ٣٢)، وعن لوط ابن أخيه الذي تركه وسكن في سادوم (تك ١٣: ١٢).

ترك من أجله

المهم أن أبانا إبراهيم بدأ حياته مع الله بترك أرضه وعشيرته.

ونفس الوضع كان بالنسبة إلى الآباء الرسل: لم يكتفوا بأن تركوا الشبّاك وتركوا السفينة كصيادين وتبعوا الرب (مت ٣: ٢٠، ٢٢). وإنما قال القديس بطرس أيضاً للرب: "هَآ نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ" (مت ١٩: ٢٧).

وأنت ماذا تترك من أجل الرب؟ تترك حياتك الخاطئة بالتوبة، وتترك من مالك العشور والبكور وما يطلبه منك المحتاجون، وتترك شهوة الطعام بالصوم. وتترك من وقتك يوماً للرب، وأجزاء من وقتك للصلاة والعبادة. وتترك أصدقاء السوء كما يأمر المزمور (مز ١). بل تترك أهل بيتك إن انطبق عليهم قول الرب: "أَعْدَاءُ الْإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ" (مت ١٠: ٣٦). أو إن انطبق عليهم قول الرب أيضاً: "مَنْ أَحَبَّ أَباً أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي" (مت ١٠: ٣٧).

على أن أبانا إبراهيم لم تقتصر حياته على عنصر التزك من أجل الرب، إنما كانت له فضائل كثيرة.

فضائل إبراهيم

أول ما نذكره في فضائله: حياة الطاعة والتسليم. فلما دعاه الرب إلى ترك أرضه وعشيرته، "أَطَاعَ... وَهُوَ لَا يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ (يذهب) يَأْتِي" (عب ١١: ٨). ولما أمره الرب أن يقدم ابنه وحيدته إسحاق محرقة، لم يتوان، بل أخذه معه، وأخذ الحطب والسكين، ورفع يده ليزبحه (تك ٢٢: ٩، ١٠).

يتميز إبراهيم بفضيلة أخرى هي الكرم: فلما جاءه ثلاثة ضيوف، اختار عجلًا رخصًا وسلّمه للغلام ليطبخه. بينما كان يكفي الثلاثة أن يذبحوا لهما ديكًا أو على الأكثر ماعزًا أو خروفاً. كما أمر بتقديم ثلاث كيلات دقيقًا لتُصنع لهم خبزًا. بالإضافة إلى ما قدمه من لبن وزُبد (تك ١٨ : ٦ - ٨). كل ذلك ليأكل الضيوف، ويأكل أيضًا الرعاة والخدم فرحًا بقدوم الضيوف.

يتميز إبراهيم أيضًا بالتواضع: فلما أتاه الضيوف، سجد لهم إلى الأرض وغسل أرجلهم، وقال لهم: "أَخَذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَاوُونَ، لَأَنْتُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ" (تك ١٨ : ٥). كذلك سجد لبني حث (تك ٢٣ : ٧). في مناسبة شرائه أرضا منهم لتكون مقبرة.

تميز إبراهيم أيضًا بالنخوة والشجاعة: وظهر ذلك واضحًا في قصة سبي لوط مع أهل سادوم. إذ يقول الكتاب: "قَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِّي جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّينَ، وَلِدَانِ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ... وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الْأَمْلَاقِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ أَيْضًا" (تك ١٤ : ١٤ ، ١٦).

وفي ذلك الحادث تميز بغفة اليد أيضًا. فلما عرض عليه ملك سادوم أن يأخذ الأملاك التي استردها، رفض قائلاً: "لَا أَخَذَنْ لَا خَيْطًا وَلَا شِرَاكَ نَعْلٍ... فَلَا تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ" (تك ١٤ : ٢٣).

وتميز أيضًا باحترام الكهنوت (مع أنه كان كاهنًا لأسرته). فسمح لملكي صادق كاهن الله العلي أن يباركه. وقدم له إبراهيم العشور (تك ١٤ : ١٨ - ٢٠).

وتميز إبراهيم أيضًا بأنه رجل المذبح. ففي كل مكان ينتقل إليه، كان يبني مذبحًا للرب، ويُصعد له محرقات (تك ١٢). وكان رجل الخيمة التي تُمثل في سيرته حياة الغربة. إذ ليست لنا هنا مدينة باقية.

وكان يتميز أيضًا بالشفاعة في غيره، واللجاجة مع الله في ذلك.

وقد ظهر هذا بوضوح في شفاعته في أهل سادوم، بدالة كبيرة، حتى قال له الله أخيرًا: إن وُجد فيها عشرة، لا أُهلك المدينة لأجل العشرة (تك ١٨ : ٢٣ - ٣٢).

وتميز إبراهيم ببعده عن الخصومة. ويظهر ذلك في علاقته مع لوط (تك ١٣). وفي علاقته الطيبة مع زوجته سارة.

حدثكم عن كثير من فضائل أبينا إبراهيم.

وأحدثكم الآن عن بعض ضعفاته، هذا القديس العظيم الذي لا نستحق تراب قدميه... ولكن هكذا قدّم لنا الكتاب حياة القديسين.

ضعفاته

لم يقدمهم لنا كبشر معصومين من الخطأ، وإنما كبشر مثلنا غير أن النعمة عملت في استعدادهم الشخصي فرفعتهم إلى مستوى عالٍ.

وكمثال فإن إيليا النبي العظيم الذي بصلاته أغلق السماء وفتحها، قال عنه الكتاب: "كَانَ إِيلِيَّا إِنْسَانًا تَحْتَ الْآلَامِ مِثْلُنَا" (يع ٥: ١٧). وبطرس الرسول مثلاً - مع كونه خاف وأنكر - لا يمنع ذلك من أنه كان قديساً عظيماً. ولكن له بعض ضعفات. وداود النبي أيضاً كنت له ضعفاته وخطاياه، ومع ذلك قيل إنه: كان "قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ" (امل ١١: ٤) ..

وأبونا إبراهيم أبو الآباء، حدث له تجربة أظهرت بعض ضعفاته:

يقول الكتاب: "وَحَدَّثَ جُوعٌ فِي الْأَرْضِ، فَأَنَحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لِأَنَّ الْجُوعَ فِي الْأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا. وَحَدَّثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَيَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمُنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكَ. قُولِي إِنَّكَ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكَ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ" (تك ١٢: ١٠ - ١٣).

* أول خطأ هنا أن أبرام خاف من الجوع، ولم يؤمن أن الله يمكن أن يرعاه في الأرض الي أراه إياها (تك ١٢: ١). وثاني خطأ أنه اعتمد على الذراع البشري، ولجأ إلى مصر لتحميه من الجوع.

وكانت مصر مشهورة جداً بخصوبة أرضها وبمحصولها الوفير من القمح. فكان يلجأ إليها سكان البلاد المجاورة في أيام المجاعات، كما حدث فيما بعد أن لجأ إليها أبناء يعقوب حفيد إبراهيم في وقت المجاعة أيام يوسف الصديق (تك ٤٢: ١ - ٣). وقيل أيضاً - بعد قرون طويلة - إن مصر كانت مخزن غلال للإمبراطورية الرومانية.

ولذلك فإن الله - في أيام إشعياء النبي - قد منع النزول إلى مصر طلباً للمعونة... فلو أن أبانا إبراهيم قد انتظر الرب في وقت المجاعة، لكان الله قد عالاه كما عال إيليا النبي (مل ١٧: ٤، ٩)، وكما عال أيضاً الشعب في بركة سيناء أربعين عاماً باليمن والسلوى... لكنه خاف وتَعَجَّل الذهاب إلى مصر وقت المجاعة.

*** ولم يذهب إلى هناك بأمر من الرب أو برضى منه.**

فارق الأرض التي أمره الرب أن يذهب إليها، وانحدر ليتغرب... وكان في نزوله على عكس حفيده يعقوب الذي قال له الرب: "أنا الله، إله أبيك. لا تَخَفْ مِنَ النَّزُولِ إِلَى مِصْرَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. أَنَا أَنزَلْتُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ، وَأَنَا أَصْعِدُكَ أَيْضًا" (تك ٤٦: ٣، ٤).

ولأن أبرام نزل على عكس مشيئة الله، أصابته تجربة أخرى. والعجيب أنه كان يعرف بأمر هذه التجربة.

ولذلك قال لامراته ساراي: "يَكُونُ إِذَا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكَ. قُولِي إِنَّكَ أُخْتِي...".

ما دمت يا أبانا أبرام تعرف أنه سَتُصِيبُكَ تجربة بسبب جمال امرأتك، فلماذا ذهبت إلى هناك بقدميك وأنت تعلم؟! ولماذا دخلت إلى مصر، وأنت خائف مما سوف يحدث؟!

*** الخوف من المجاعة جعله يلجأ إلى الذراع البشري لإعانتته.**

والخوف من الموت، جعله ينكر أن سارة امرأته ويقول إنها أختي.

حيلة بشرية بعيدة عن الصدق. والظاهر أنه اعتادها فكرها مرة أخرى حينما ذهب إلى جرار، وعرض امرأته أن يأخذها أبيمالك على اعتبار أنها أخت أبرام وليست زوجته.

والدليل على أنها أصبحت عادة له، قوله لأبيمالك: "وَحَدَّثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللَّهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هَذَا مَعْرُوفُكَ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قَوْلِي عَنِّي: هُوَ أَخِي" (تك ٢٠: ١٣).

وقد حاول أن يُغطي هذه الحيلة البشرية، حتى لا يُقال عنه إنه كذب. فقال في قصته مع أبيمالك: "وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً" (تك ٢٠: ١٢).

كان مثل هذا الزواج مسموحًا به في العصور الأولى للبشرية.

ولكنه الغي في شريعة موسى، كما أمر الرب في سفر اللاويين (لا ١٨: ٩).

* في قوله: "هي أختي"، وعدم قوله: "وهي امرأتي أيضًا" استخدم أسلوب أنصاف الحقائق الذي يُفهم على أنه كذب.

وهنا كان يقصد فعلاً أنهم لا يفهمون أنها زوجته...

ولمقاومة أنصاف الحقائق التي تُعتبر كذبًا، حسنًا أنه في ساحة القضاء يُقسم الشاهد بأن يقول "الحق كل الحق ولا شيء غير الحق". فليس المهم فقط حرفية الألفاظ التي يقولها الشخص مُدعيًا أنها صدق. بل الأهم هو ما يفهمه السامع من قول القائل.

والذي فهمه فرعون (تك ١٢)، والذي فهمه أبيمالك (تك ٢٠) أن ساري ليست امرأة أبرام. لذلك أخذها كل منهما لتكون زوجة له.

* وبهذا الأسلوب سَبَّبَ أبرام عشرة لفرعون وعشرة لأبيمالك.

واستحق أن يوبخه كل منهما على تصرفه.

"فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لَتَكُونَ زَوْجَتِي؟" (تك ١٢: ١٨، ١٩). وأيضًا نفس التوبيخ سمعه من أبيمالك: "دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَمِمَّاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَاءَتْ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ؟ أَعْمَالًا لَا تَعْمَلُ عَمِلْتُ بِي" (تك ٢٠: ٩).

حقًا إنه لأمر مخجل، أن رجلًا علمانيًا، وأمميًا ليس من شعب الله يوبخ نبيَّ الله العظيم، الذي قال له الرب: "وَتَكُونُ بَرَكَهً" (تك ١٢: ٢).

* أبونا إبراهيم لم يُسبب فقط عشرة لفرعون ولأبيمالك، إنما أيضًا عَرَّضَهُمَا لَغَضَبِ اللَّهِ... على غير ذنب منهما.

وهكذا في حالة فرعون قرأنا أنه كُتِبَ "فَضْرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرْبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارِي امْرَأَةِ أَبْرَامَ" (تك ١٢: ١٧).

وفي قصة أبيمالك قيل: "فَجَاءَ اللَّهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلُمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَرَوِّجَةٌ بِبَعْلِ"، وقال أبيمالك: "يَا سَيِّدُ، أُمَمَةٌ بَارَةٌ تَقُولُ؟ أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلَامَةِ قَلْبِي وَتَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هَذَا. فَقَالَ لَهُ اللَّهُ فِي الْحُلُمِ: أَنَا أَيْضًا

عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلَامَةٍ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هَذَا. وَأَنَا أَيْضًا أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ،
 لِذَلِكَ لَمْ أَدْعُكَ تَمَسُّهَا. فَالآن رَدَّ امْرَأَةُ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيَصِلَنِي لِأَجْلِكَ فَتَحِيًّا.
 وَإِنْ كُنْتُ لَسْتُ تَرُدُّهَا، فَأَعْلَمُ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ" (تك ٢٠: ٣-٧).

* وأبونا إبراهيم لم يُسبب فقط عثرة وغضبًا من الله لفرعون ولأبيمالك، إنما
 أيضًا سَبَبَ عثرة لزوجته وتجربة.

في قوله لها: "قولي إنك أختي". وفي طاعتها له وقولها: "هُوَ أَخِي". وفي
 تعرضها مرة أن يأخذها إلى بيت فرعون (تك ١٢: ١٥).
 ومرة أخرى "أَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ" (تك ٢٠: ٢).

مسكينة هذه المرأة القديسة فيما تعرضت له من تجارب وعثرات بسبب
 خوف زوجها من القتل، وبسبب طاعتها له. لا شك أنها كانت في ألم وحرَج
 شديدين، وفي خوف مما كان ممكنًا أن يحدث!!

والعجيب أن أَبْرَامَ في تضحيته بامرأته، التمس لنفسه عذرًا، فقال: "إِنِّي
 قُلْتُ: لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللَّهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لِأَجْلِ امْرَأَتِي"
 (تك ٢٠: ١١).

يا أبانا أَبْرَامَ، وما دُمت تعلم أن ذلك الموضع ليس فيه خوف الله، فلماذا
 ذهبت إليه؟! ولماذا تُعَرِّضُ نفسك للحِيلِ البشرية وللكذب؟ وكيف تُضحى
 بامراتك لكي يستبقوك أنت؟! وماذا كان شعورك وهم يأخذون امرأتك أمامك،
 لتكون زوجة لرجل آخر؟!

* **حقًا إن خطية تقود إلى خطية أخرى، بل إلى سلسلة من الخطايا**

الذهاب إلى مكان ليس فيه خوف الله، يؤدي إلى الخوف من الموت. وهذا الخوف يؤدي إلى التحايل البشري. والتحايل يؤدي إلى الكذب، والكذب يؤدي إلى العثرة، والعثرة تؤدي إلى التضحية بالزوجة، من أجل حرصك على استبقائك...

* **أَبْرَامَ تَخْلَى عَنْ زَوْجَتِهِ لِأَجْلِ نَفْسِهِ. وَلَكِنْ اللَّهُ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهَا.**

تولى قيادة الموقف، تدخل لحماية سارة، هذه التي سوف يأتي من نسلها المخلص والفادي. حماها من ملكين اشتهاها هذه العجوز الجميلة، وأخذها لتكون زوجة، في غير اكتفاء بما عندهما من زوجات! فضرب فرعون، وهدد أبيمالك بالموت، وأعيدت ساره سالمة إلى بيت زوجها الخائف.

* **عَجِيبَ قَوْلِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ لَزَوْجَتِهِ سَارَةَ: "قُولِي إِنَّكَ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي**

خَيْرٌ بِسَبَبِكَ وَتَحْنًا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ" (تك ١٢: ١٣)

أية حياة هذه يا أبي، وأي خير يكون لك، حينما تؤخذ زوجتك منك إلى بيت رجل آخر؟! وهل تكون لك راحة في ضميرك؟! كان خيرًا لك لو اضطررت إلى الذهاب إلى بلد آخر ليس فيه خوف الله، أنك تذهب وحدك بدون زوجتك، ما دُمت غير قادر على حمايتها، وما دُمت خائفًا على نفسك!!

* **إنها جرأة مني أنني كلمتك بهذه الصراحة، بينما الله في حنوه، العارف**

بضعف طبيعتنا، لم يتوجه إليك بأي لوم.

بل على العكس قال لأبيمالك عنك: "رَدَّ امْرَأَةُ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّي لِأَجْلِكَ فَتَحَيَّا" (تك ٢٠: ٧).

حقًا، كما قال داود النبي: "أقع في يد الله، ولا أقع في يد إنسان، لأن مراحم الله كثيرة" (٢ صم ٢٤: ١٤).

وفي حنوه أيضًا، قام الرب - عوضًا عنك - بحماية سارة ما دُمت لم تستطع أن تحميها، بل فضلت ذاتك عليها.

سامحني يا أبي القديس، فإن لك فضائل كثيرة تُغطي على هذه الضعفات التي كشفها ذهابك إلى مصر، وإلى أرض جرار...

* نقطة أخرى أقولها في تجربة ساري في مصر، وهي قول الكتاب: "فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأَتْنٌ وَجِمَالٌ" (تك ١٢: ١٥، ١٦).

عجيب أن أبرام قبل كل هذا (الخير) من فرعون!! أكان هذا يُغني عن سارة زوجته؟! أما كان ثمنًا لسارة؟! وهل كل يوم كان أبرام ينظر إلى هذا الغنى، كان يذكر سارة فيتألم؟! أم كان أبرام يتضرع في صلواته أن ينجيه الرب من هذه التجربة. يقيئًا إنه كان يصلي، وإن كان الكتاب لم يذكر.

على أن أبرام في نضوجه الروحي، رفض مثل هذا الغنى من ملك سادوم بعد إنقاذه سبي سادوم. فقال له ملكها: "أَعْطِنِي النَّفُوسَ، وَأَمَّا الْأَمْلاكُ فَخُذْهَا لِنَفْسِكَ". فَقَالَ أَبْرَامُ لِمَلِكِ سَدُومَ: رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ إِلَهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ

والأرض، لَا آخُذَنَّ لَا حَیْطًا وَلَا شِرَاكَ نَعْلَ وَلَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلَا تَقُولُ:
 أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ" (تك ١٤ : ٢١ - ٢٣).

* ملاحظة أخرى أحب أن أقولها فيما تعرضت له ساره من تجربة:

وهي عمل الحاشية المحيطة بالملوك وتنظن أنها مخلصه!

قيل في ذلك: "أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ (سارة) أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. (أي جميلة جدًا) وَرَأَاهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ (أي الرؤساء العاملين عند فرعون)، وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةَ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ" (تك ١٢ : ١٤ ، ١٥) ... عجبًا على هؤلاء الرجال الذين يظنون أَرْضَاءَ فرعون بأن يجلبوا له امرأة جميلة لَتُضَمَّ إِلَى بيته كزوجة، مع أنها امرأة غريبة...

وهنا أذكر أن سارة الجميلة كانت عجوزًا.

كان الفرق في العمر بينها وبين زوجها أَبْرَامَ عشر سنوات. ففي حبْلِها باسحاق، كان عمر أَبْرَامَ مائة سنة وعمرها تسعين (تك ١٧ : ١٧).

وحيثما خرج أَبْرَامَ من أرضه وببيت أبيه كان عمره ٧٥ سنة (تك ١٢ : ٤). إِذَا كَانَ عُمُرُهَا وَقْتِذَاكَ ٦٥ سنة. وغالبًا حينما ذهبت إلى مصر كان عمرها حوالي السبعين. أما حين ذهبت إلى جرار في (تك ٢٠ : ٢). بعد وعد الله لها بالنسل في (تك ١٧ : ١٧)، وفي (تك ١٨ : ١١ - ١٣) كانت في حوالي التسعين من عمرها ولذلك تَعَجَّبَتْ من وعد الله لها وقالت: "أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شَخُتُ" (تك ١٨ : ١٣). ومع ذلك كانت جميلة جدًا، فأخذها أبيمالك لتكون له زوجة!

تجربة أخرى تَعَرَّضَ لها أبونا إبراهيم. وهي مشكلته مع لوط.

نسل إبراهيم

على الرغم من محبة الرب لأبينا إبراهيم، إلا أنه مرت سنوات طويلة لم يُعْطِه فيها نسلًا. عندما خرج من بيت أبيه كان عمره ٧٥ سنة ولم يكن له نسل. ووعده الله قائلاً: "أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً" (تك ١٢: ٢). وَأَبْرَامَ قَالَ لِلرَّبِّ: "إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلًا" (تك ١٥: ٣).

حَقًّا إِنَّ "الْبُنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ" (مز ١٢٧: ٣).

* وهذه حقيقة يوضحها لنا الكتاب. مثال ذلك راحيل زوجة يعقوب:

* يقول الكتاب: "فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: هَبْ لِي بَنَيْنَ، وَإِلَّا فَأَنَا أَمُوتُ! فَحَمِي غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: أَلَعَلِّي مَكَانَ اللَّهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكَ ثَمَرَةَ الْبَطْنِ؟" (تك ٣٠: ١)، (٢). وفيما قال الكتاب: "وَذَكَرَ اللَّهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللَّهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا" (تك ٣٠: ٢٢). وقبل ذلك قيل: "وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ لَيْئَةَ مَكْرُوهَةٌ فَفَتَحَ رَحِمَهَا" (تك ٢٩: ٣١).

* **إِذَا يَأْتِي الْبَنُونَ حَسَبَ مَشِيئَةِ اللَّهِ:** حنة امرأة ألقانه، التي صارت فيما بعد أم صموئيل، وكانت عاقراً صلت إلى الله وهي مُرّة النفس، وقالت: "إِنْ... أُعْطِيتْ أَمْتًا زَرْعَ بَشَرٍ، فَإِنِّي أُعْطِيهِ لِلرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ" (١صم ١: ١١).

* **وداود قال له الرب:** "أَقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ... هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي... إِنْ تَعَوَّجَ أَوْدَبَهُ بِقَضِيبِ النَّاسِ... وَلَكِنْ رَحِمْتِي لَا تُنْرَعُ مِنْهُ" (٢صم ٧: ١٢-١٥).

* وهكذا وعد الله أَبْرَامَ أَنْ يعطيه نسلًا، وكرر الوعد مرارًا. لكن أَبْرَامَ لما طال عليه المدة، لجأ إلى العمل البشري، وليس المشيئة الإلهية.

قالت له ساري: "هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَني عَنِ الْوِلَادَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَّتِي لَعَلِّي أُرْزُقُ مِنْهَا بَنِينَ" (تك ١٦: ٢). فأخذ هاجر فعلاً. دخل عليها وللحال حبلت بابن.

العجيب أن الطرق البشرية تأتي بنتيجة سريعة أكثر من مشيئة الله.

نجحت السنة الأولى مع هاجر أكثر من عشرات السنوات مع ساري. لكنها حبلت ليست بمشيئة الله، بل بالطرق البشرية. لذلك قال له الرب: "بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ" (تك ١٧: ١٩).

هاجر هذه كانت جارية ساري، وفي حبلها يُسجل لنا الكتاب حقيقة مُرّة وهي: "لَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا" (تك ١٦: ٤).

حقًا إن ساراي امرأة قديسة. لكن لما رأت أنها صغرت في عيني جاريتها، عرفت كيف تؤذيها، فأذلتها. ليس سهلاً أن امرأة تقع في يد امرأة أخرى...! إنها لم تُذلها فقط، بل غضبت على زوجها أبرام لأول مرة. وقالت له: "ظُلِمَ عَلَيْكَ... يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ" (تك ١٦ : ٥). وأبرام الرجل المُسالَم، قال لها: "هُوَذَا جَارِيَتُكَ فِي يَدِكَ. أَفْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكَ. فَأَذَلْتُهَا سَارَايَ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهَهَا" (تك ١٦ : ٦)

عبارة "لَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا" قاسينا نحن من أمثالها في مجال الرعاية. يحدث أن أحد الآباء الكهنة يبدأ أن يكون له شعبًا، حينئذ يصغر أسقفه في عينيه!! أو أي خادم يصيبه النجاح، يصغر الكبار في عينيه.

هربت هاجر. ولم يتركها الله. ظهر لها ملاك الرب وسألها عن حالها، فقصت عليه قصتها. فقال لها: "يَا هَاجِرُ جَارِيَةٌ سَارَايَ... ارْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكَ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا" (تك ١٦ : ٨، ٩).

أي أن الله ساند ساراي، وما أكثر المواقف التي ساندتها فيها.

وقف معها ضد فرعون، وضد أبيمالك، وضد هاجر. كانت قديسة صامتة وهادئة. وحتى لما خرجت عن هدوئها وغضبت، ساندتها أيضًا. وأرسل ملاكه يقول لهاجر: ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها. لا تتسي أنك جارية ساراي.

ومع ذلك سيكون لك ابن، ويدعى إسماعيل "يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ" (تك ١٦: ١١، ١٢).

المهم أن هذه التجربة البشرية - مع هاجر - لم تنجح. لأن مشيئة الله كانت أن يُرزق إبراهيم بنسل من سارة...

العجيب أن أبانا إبراهيم كان أحياناً يخطئ ثم يعتاد الخطأ.

في تجربته مع فرعون، قال لسارة: "قولي إنك أختي"... ثم عاد وكرر نفس الأمر في تجربته مع أبيمالك. كأنها صارت له عادة.

وأيضاً في موضوع النسل، دخل تجربة النسل بطريقة بشرية مع هاجر... ومع أن الله رفض نسله من غير سارة، عاد فيما بعد، وأخذ قطورة زوجة له. لم يكن ذلك ليكون له نسل، لأنه قد صار له نسل بإسحاق. ولكن لأن النسل لم يكن بعد قد صار كعدد نجوم السماء وتراب الأرض، والرمل.

فبعد موت سارة بثلاث سنوات، وكان عمره ١٤٠ سنة أخذ قطورة. سارة ماتت وعمرها ١٢٧ سنة (تك ٢٣: ١). وهو أكبر منها بعشر سنوات، أي كان عمره عند موت سارة ١٣٧ سنة. بعد ذلك يقول الكتاب: "وَعَادَ إِبْرَاهِيمَ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، فَوُلِدَتْ لَهُ: زِمْرَانُ وَيَقْشَانُ وَمَدَانَ وَمِديَانَ وَيَشْبَاقَ وَشُوحًا. وَوُلِدَ يَعْشَانُ: شَبَا وَدَدَانُ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلَأَمِيمَ. وَبَنُو مِديَانَ: عَيْفَةَ وَعِغْرَ وَحَنُوكَ وَأَبِيدَاعَ وَالْأَدْعَةَ. جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو قَطُورَةَ" (تك ٢٥: ١-٤).

حقاً إن الطرق البشرية قد تأتي بنتائج سريعة، ليس من الله!

ولكن كل هذه النتائج لم تكن حسب مشيئة الله. ولذلك يقول الكتاب:
 "وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ كُلِّ مَا كَانَ لَهُ. وَأَمَّا بَنُو السَّرَّارِ اللَّوَاتِي كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ
 فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ... وَهُوَ بَعْدَ حَيٍّ" (تك ٢٥:
 ٥، ٦).

ممكن أن الطرق البشرية تأتي بأشوريم، ولطوشيم، ولأميم. ويمكن أن تأتي
 بيقشان وددان، ولكن لا تأتي بإسحاق. كله مجهود بشري ضائع لم يباركه
 الرب. ولم يكن له من كل هؤلاء نسل كنجوم السماء ورمل البحر.
 إبراهيم كان مشكلته أن يكون له نسل. وكان النسل وقتذاك بركة عظيمة...
 حاليًا الناس يمنعون النسل (عكس أيام أبينا إبراهيم). أو يلجأون إلى النسل
 بطرق بشرية أخرى - ليس من الجواري والسراري - بل بالعمليات الجراحية،
 أو البويضات المخصبة. وطبعًا البويضة المخصبة التي تأخذها امرأة من
 البنك وتضعها في رحمها هي خطية ١٠٠٪ فالبويضة ليست منها. إذاً ليست
 هي الأم الحقيقية. كما أنها مخصبة من رجل غير زوجها، فلا يجوز أن
 تدخل في رحمها...

نعود إلى قصتنا فنقول: لما وعد الله إبراهيم بنسل من سارة "سَقَطَ إِبْرَاهِيمَ
 عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: هَلْ يُوَلَّدُ لَابْنٍ مِثْلَ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ
 وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟" (تك ١٧: ١٧) لم يكن أمامه قول الإنجيل: "غَيْرُ
 الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ" (لو ١٨: ٢٧). "لَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ
 مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ" (مر ١٠: ٢٧).

وأيضًا لما قال الله لسارة: أنه سيكون لها نسل، فَضَحِكْتَ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: أَبَعَدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟ فسأل الرب إبراهيم "لَمَّاذَا ضَحِكْتَ سَارَةُ... هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟" (تك ١٨: ١٢، ١٣). حينئذٍ "أُنْكِرْتَ سَارَةُ قَائِلَةً: لَمْ أَضْحَكْ. لَأَنَّهَا خَافَتْ. فَقَالَ: لَا! بَلْ ضَحِكْتَ".

عجيب أنها كذبت في حضرة الله. ولكن القديسين لهم أيضًا هفوات لم يحاسبهم عليها الله، كما قال داود: "إِنْ كُنْتُ لِلْأَثَامِ رَاصِدًا يَا رَبُّ، يَا رَبُّ مَنْ يَنْبُتُ. لِأَنَّ مِنْ عِنْدِكَ الْمَغْفَرَةُ" (مز ١٣٠: ٣).

قالت: "أبعد فنائي يكون لي تَنَعُّمٌ، وسيدي قد شاخ؟! بعد فنائها أي بعد أن كان جسمها لا يُنْتِج بويضات. "يكون لي تَنَعُّمٌ" أي يكون لي ابن أفرح بولادته. أما عبارة: "وسيدي قد شاخ" فقد رد عليها أَبْرَامَ عمليًا لما أخذ قطورة وأنجبت له مجموعة من الأبناء بعد ذلك بأربعين سنة.

وكأنه يقول: أنا لم أشخ بعد... وحتى إن كان إبراهيم قد شاخ، فبذرة الحياة كانت لا تزال موجودة فيه. عجيب أن البعض يستصعبون عمل الله ومعجزاته، ويضحكون في سرهم.

طبعًا المرأة العاقر، من المستحيل - حسب الطبيعة - أن تلد. ولكن الله قادر على أن يجعلها تلد. وسفر إشعياء يقول: "تَرْتَمِي أَيْتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشْيِدِي بِالتَّرْتُمِ أَيْتُهَا الَّتِي لَمْ تَمَخْضْ، لِأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبُعْلِ، قَالَ الرَّبُّ" (إش ٥٤: ١).

العجيب أن العواقب اللائي منحهن الرب أولادًا، صار أولادهن من أعظم الأبناء .

* أليصابات كانت عاقراً وعجوزاً أيضاً. وقد منحها الله أن تلد يوحنا المعمدان الذي صار أعظم من ولدته النساء (مت ١١ : ١١).

* حنة امرأة ألقانه التي كانت عاقراً، وكانت ضرتها فننه تُغيظها، ولدت ابناً من أعظم الأنبياء هو صموئيل الذي كان أول من مسح الملوك بقنية الدهن التي معه.

* وراهيل التي كانت عاقراً، أنجبت يوسف الذي صار مثالاً للطهارة (تك ٣٩)، والذي كان الله معه وكان إنساناً ناجحاً، وصار أباً لفرعون ومُتسلطاً على كل مصر.

لاحظوا في ذلك الزمان أن العقم كان لاصفاً بامرأة.

حالياً نسمع عن رجال مصابين بنفس العقم.

تجربة إسحاق

منح الله ابناً لإبراهيم هو إسحاق. ولما كبر، قال له: "خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ... وَأَضْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ" (تك ٢٢ : ٢).

كانت تجربة فوق الطبيعة، وأصعب تجربة تمر بأبٍ ينتظر هذا الابن، حتى وُلد له في شيخوخته! فكيف يذبحه بيده؟!

ولكن إبراهيم لم يكن يناقش الله، بل كان يُطيع في إيمان.

فَبَكَرَ إبراهيم صباحًا جدًا (قبل أن تصحو سارة من نومها).

وأخذ معه حطب المحرقة والنار والسكين. وذهب لِيُنْفِذَ أمر الله في ابنه... وفي كل ذلك ما كان يَشْكُ في محبة الله ورعايته له. وما كان يَشْكُ أيضًا في عودة ابنه إسحاق إليه!!

ولم ينكسر قلبه حينما قال له إسحاق: "هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمَحْرِقَةِ؟". ولم تَتَقَنَّتْ أحشأؤه وهو يربط ابنه وحيداً ويضعه على المذبح فوق الحطب!

لقد نفذ وصية الله قبل أن يقولها الرب يسوع، وهي:

"مَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوْ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي" (مت ١٠ : ٣٧).

لذلك منعه الرب من ذبح ابنه؛ تكفي نيته الصادقة.

ومنحه البركة أن يكون نسله كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ

البحر (تك ٢٢ : ١٧). ومع بركات أخرى كثيرة.

لوط (مع عمه إبراهيم)

الفرق بينهما

يقدم لنا الكتاب المقدس نوعين من الشخصيات:

* النوع الأول نوع مقصود بذاته، له أهميته، مثل أبينا إبراهيم أبي الآباء، الذي كان اسمه أولاً أْبْرَامَ، والذي ذكر الكتاب سيرته وما مرّ بحياته من أحداث إلى يوم وفاته ودفنه.

* أما النوع الثاني من الأشخاص، فقد ذُكرت حياته عرضاً على هامش حياة شخصية مهمة. ومن هذا النوع لوط ابن أخي إبراهيم.

* أْبْرَامَ دعاه الله أن يخرج من أرضه ومن عشيرته ومن بيت أبيه إلى الأرض التي يريه الله إياها (تك ١٢ : ١). ولوط لم يتلق دعوة من الله. ولكن عمه أْبْرَامَ - لما خرج - أخذه معه (تك ١٢ : ٥). ولعلني هنا أسأل: ما دام لوط كان من عشيرة أْبْرَامَ ومن بيت أبيه، فكيف أخذه؟ وقد كان ذلك ضد أمر الله له أن ينفصل عن كل عشيرته!

* نال أْبْرَامَ بركة من الله في دعوته. وقال له الله: "أباركك، وأبارك مباركك... وتكون بركة" (تك ١٢ : ٢، ٣). ولم يذكر الكتاب أن لوطاً نال مثل هذه البركة.

* كان أَبْرَامَ في كل مكان يحل فيه بيني مذبجاً للرب، ويدعو باسم الرب (تك ١٢ : ٨)، (تك ١٣ : ١٨). أما لوط فلم يقل الكتاب إنه بنى مذبجاً للرب، أو أنه دعا باسم الرب. لعله كان فقط ينتفع ببركة مذبج أَبْرَامَ عمه.

* ذكر الكتاب أكثر من مرة، أن الله ظهر لأَبْرَامَ وكلمه، وأيضاً قَبْلَ شفاعته. ولم يذكر مرة واحدة أن الله ظهر للوط أو كلمه. وفي إنقاذه من سادوم كلمه ملاك (تك ١٩). وكان ذلك بشفاعة إبراهيم (تك ١٩ : ٢٩).

* لما كَثُرَتْ أغنامهما ومواشيهما وأملاكهما، ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً، واعتزلاً... اختار لوط لنفسه، الأرض الْمُعْشِبَةَ (تك ١٣ : ١١). أما أَبْرَامَ فأخذ الأرض التي اختارها له الرب (تك ١٣ : ١٤، ١٥).

* لم يذكر الكتاب لنا حياة لوط، ولا شيئاً عن بره، إنما ذَكَرَ عنه القديس بطرس الرسول إنه كان "باراً"، وكانت نفسه تتعذب يوماً فيوماً بمناظر الناس الأشرار في سادوم (٢بط ٢ : ٨). ولعله كان ضمن العشرة الأبرار الذين اتفق الرب مع إبراهيم إنهم - لو وجدوا في سادوم - لا يُهْلِكُهَا من أجلهم (تك ١٨ : ٣٢)... على أنهم لم يوجدوا.

* في كل مرة كان يقع لوط في خطر (تك ١٣ : ١٢ - ١٦) أو يتعرض لخطر (تك ١٨، ١٩)، كان عمه إبراهيم هو الذي يُنْقِذُهُ.

* نسل إبراهيم باركه الرب، فصار عدده كنجوم السماء (تك ١٥ : ٥). أما نسل لوط فلا نعرف عن أبناء أولاده شيئاً. أما الموابيون والعمونيون أبناء ابنتيه، فلم يدخلوا في عِدَادِ شعب الله، كأولاد للخطيئة (تك ١٩ : ٣٦ - ٣٨).

لم تسعهما الأرض

تعرض أبونا إبراهيم لتجربة من فرعون في ذهابه إلى مصر (تك ١٢: ١٠-٢٠). وتعرض لتجربة أخرى من أبيمالك ملك جرار (تك ٢٠). وتعرض لتجربة ثالثة في حياة لوط معه. إذ لما اتسعت أملاكهما، يقول الكتاب: "لَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأرض أَنْ يَسْكُنَا مَعًا" (تك ١٣: ٦).

عجيب هذا الأمر أن الأرض لا تحتل اثنين أن يسكنا معًا!!

* حدث هذا الأمر من أول البشرية مع قايين وهابيل (تك ٤). وكانا أخوين شقيقين. وكان السبب في ذلك، الغيرة التي اشتعلت في قلب قايين، لأن الله لم يقبل قربانه، وقَبِلَ ذبيحة هابيل.

* وأيضًا يعقوب وعيسو لم تحتلها الأرض أن يسكنا معًا، وكانا شقيقين وتوأمين. وقال عيسو: "قَرَبْتُ أَيَّامَ مَنَاحَةِ أَبِي، فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي" (تك ٢٧: ٤١). وكان السبب هو التنافس على البركة. وهرب يعقوب من وجه أخيه عيسو.

* ولم تحتل الأرض يوسف الصديق وإخوته أن يسكنا معًا، فباعوا أخاهم عبدًا للإسماعيليين (تك ٢٧: ٢٥). وكان السبب هو غيرتهم من أحلامه ومن إكرام أبيه له أكثر منهم.

* ولم تحتل الأرض داود الملك وابنه أبشالوم أن يسكنا معًا، لأن أبشالوم اشتهى أن يكون له الملك بدلًا من أبيه، فَكَوَّنَ جيشًا وحاربه (٢ صم ١٥).

* ولم تحتل الأرض شاوول الملك وداود زوج ابنته أن يسكننا معًا، إذ كان شاوول يغار من داود بعد انتصاره على جليات، وكان ينظر إليه كمنافس له في الملك (اصم ١٨: ٧ - ١٠).

* كذلك لم تحتل الأرض أن يسكن الملك هيرودس والقديس يوحنا المعمدان معًا، لأن القديس يوحنا المعمدان كان يوبخ هيرودس قائلاً له: "لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ" امرأة أخيك (مت ١٤: ٤).

* والأمثلة كثيرة. ومنها أبرام ولوط، لم تحتلها الأرض أن يسكننا معًا، بسبب الغنى والاتساع.

وكان الحل أن يعتزلاً، بدلاً من استمرار الخصومة بسبب التنافس على أرض الرعي. وهكذا قال أبرام للوط ابن أخيه: "لَا تَكُنْ مُخَاصِمَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لِأَنَّنَا نَحْنُ أَحْوَانٌ. أَلَيْسَتْ كُلُّ الْأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزَلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا" (تك ١٣: ٨).

كان اعتزلاً، مع الاحتفاظ بالمحبة. ولم تكن في ذلك خطيئة.

انفصلا عن السكنى معًا، ولم ينفصل قلب أبرام عن لوط، بدليل أنه لما وقع لوط في السبي، جمع أبرام رجاله وذهب فأنقذه (تك ١٤: ١٣ - ١٦).

وكان نبلاً من أبرام، أنه في انفصال لوط عنه، ترك له الحرية في اختيار الأرض التي تُعجبه. فاختار لوط له أفضل الأرض للرعي!

"فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ" (تك ١٣: ١١). ولم يكن اختياره سليماً!!

اختار أرضًا "جميعها سقي" أرضا مُعشبة، قال عنها الكتاب إنها كانت "كَبَجَةِ الرَّبِّ، كأرضٍ مِصْرَ" (تك ١٣ : ١٠). اختار الأرض الصالحة لغنمه وبهائمها، ليست الأرض الصالحة لحياته الروحية ولمستقبله الأبدي!! اهتم بنوعية الأرض، وليس بسكانها! بينما ينصح المثل أن نختار الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق. اختار لنفسه، ولم يطلب من الله أن يختار له...!

أما أِبْرَامَ فمن بدء القصة، كان قد اختار الأرض التي قال له الرب عنها: "الأرض الَّتِي أُرِيكَ إِيَّاهَا" (تك ١٢ : ١). وحتى في هذه المناسبة، صمت أِبْرَامَ منتظرًا مشيئة الرب. إلى أن قال له الله "بَعْدَ اعْتِرَالٍ لُوطٍ عَنْهُ: ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ... لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِسُلُوكِ..." (تك ١٣ : ١٤، ١٥).

وحينئذٍ "ثَقَلَ أِبْرَامَ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بِلُوطَاتٍ مَمَرًا الَّتِي فِي حَبْرُونَ، وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ" (تك ١٣ : ١٨). وعند بلوطة ممرا ظهر له الله فيما بعد، وأعطاه وعدًا، وحاوره في موضوع سادوم (تك ١٨ : ١ - ٢٠).

ما أصعب أن يختار الإنسان لنفسه. وما أعظم البركة التي ينالها، حينما يحيا حياة التسليم ويترك الرب يختار له.

والآن لننظر ماذا حدث للوط لما اختار منطقة سادوم؟

في سادوم

يقول الكتاب: "لوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَثَقَلَ خِيَامُهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا" (تك ١٣: ١٢، ١٣).

كانت مأساة ونقطة تحول: أن يترك لوط عمه القديس أبرام.

بتركه أبرام، ترك مذبج أبرام، وترك قدوة أبرام الصالح، وترك المكان الذي يدعو فيه أبرام باسم الرب، بل ترك المكان الذي يظهر فيه الرب لأبرام ويكلمه! ومنذ أن ترك أبرام، بدأت متاعبه. ولم ينفعه الخير المادي الذي في أرض سادوم، ما دام قد ترك الخير الروحي.

حقًا إن مكان الخطية له إغراءاته! ولكنها إغراءات مادية!

أرض منظرها الخارجي "كجنة الله، كأرض مصر" إنها - كما قال الرب فيما بعد: "تُشْبِهُونَ قُبُورًا مُبَيَّضَةً تَظْهَرُ مِنْ خَارِجٍ جَمِيلَةً وَهِيَ مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ" (مت ٢٣: ٢٧).

لم يزن لوط الأمر بميزان جيد، ولم يضع في إحدى كفتي ميزانه أن أهل لوط أشرار وخطاة جدًا. وفي ذلك ماذا يكون تأثيرهم عليه وعلى أولاده وبناته، بل أيضًا عليه شخصيًا!! لم يضع أمامه أن "المُعَاشِرَاتِ الرَّدِيَّةُ تُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ الْجَيِّدَةَ" (١كو ١٥: ٣٣).

ما أصدق داود النبي فيما بعد حينما قال: "طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ، وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ

يَجْلِسُ" (مز ١ : ١).

أما لوط فإنه عاش مع أولئك الأشرار والمستهزئين "وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ"
 (تك ١٣ : ١٢). وَزَوَّجَ بَنَاتِهِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ. وصار له "أصهار" من شعب سادوم
 (تك ١٩ : ١٤).

ولم نسمع أن لوطاً بنى مذبحاً للرب في سادوم.

ولم نسمع أنه دعا باسم الرب هناك، كما كان يفعل عمه إبراهيم في كل
 مكان يحلّ فيه. لقد نُسيَّ اسم الله والمذبح في سادوم. وَبُعِدَ عن الطاقة
 الروحية!!

ولم تكن للوط رسالة روحية في سادوم.

كما لو كانت رسالته فقط هي رعي الغنم والمكسب المادي!

وماذا عن تأثيره الروحي في أهل سادوم؟ إنه لم يؤثر فيهم. بل هم الذين
 أثروا عليه. وكما قال عنه معلمنا القديس بطرس الرسول: "كَانَ الْبَارُّ بِالنَّظَرِ
 وَالسَّمْعِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ يُعَذِّبُ يَوْمًا فَيَوْمًا نَفْسَهُ الْبَارَّةَ بِالْأَفْعَالِ الْأَثِيمَةِ"
 (بط ٢ : ٨). بل قال أكثر من هذا إنه كان "مَغْلُوبًا مِنْ سِيرَةِ الْأَرْدِيَاءِ فِي
 الدَّعَارَةِ" (بط ٢ : ٧).

كان بره سلبياً. إنه لم يقع في مثل دعارتهم.

اكتفى بأن يُعَذِّبَ نفسه بمنظرهم في الدعارة. أما إيجابياً، فلم تكن له رسالة
 روحية بينهم. لم يُغَيِّرْ من طباعهم ومن فسادهم شيئاً.

ولماذا لم يخرج من بينهم حرصًا على روحياته؟! لماذا بقي مُعذبًا بالنظر والسمع؟ يبدو أن الشيطان يُقيم روابط في تلك الأماكن ليس من السهل الخروج منها. ربما كان من تلك الروابط المُصاهرة، وجاذبية الأرض السقي المُعشبة التي "كجنة الله"!

وسمح له أن يخرج من أرض سادوم مسببًا في حرب (كدر لعومر).

سُبي أهل سادوم، ومن بينهم لوط. وفقد كل أملاكه في السبي. كان عاجزًا عن إنقاذ نفسه، فتدخل عمه أْبْرَامَ، وأنقذه وأعاد كل الأملاك التي أخذت في السبي (تك ١٤ : ١٦).

كان درسًا للوط. ولكنه لم ينتفع به. وللأسف عاد إلى سادوم.

ولم يذكر الكتاب كلمة شكر واحدة قالها لوط لعمه أْبْرَامَ. كما لم يذكر أنه أبدى رغبة لعمه أن يعود إلى عشرته، أو أنه اشتاق إلى مذبجه. ولم يعترف بأنه أخطأ إذ اختار سادوم وسكن فيها.

بل عاد إلى سادوم. وازداد أهل سادوم شرًا. ولم يأخذوا درسًا من وقوعهم في السبي. ولم يرجعوا إلى الله.

وبعد عودة سادوم من السبي، يحكي لنا الكتاب أخبارًا سارة عن أْبْرَامَ: كيف أنه أخذ وعدًا آخر من الله. وكيف أنه آمن فحُسب له ذلك برًا (تك ١٥ : ٦). وكيف أن الله أعطاه عهد الختان (تك ١٧ : ١٠). وأعطاه وعدًا أن يولد له ابن من سارة ويباركها ويكون منها أمم وملوك وشعوب (تك ١٧ : ١٦). وكذلك

ظهر الرب لإبراهيم عند بلوطة ممرا مع ملاكين. ووعد سارة بأبن (تك ١٨ : ١ ، ١٠).

ثم حَدَّثَ الرب إبراهيم عن سادوم، وأن خطيتهم قد عظمت جداً.

وكانت سادوم مُعَرَّضَةً كلها للإفناء، ولوط ساكن فيها.

أهل لوط لم يأتهم الإنقاذ ولا الشفاعة فيهم من لوط الساكن بينهم، بل أتت الشفاعة من الخارج، من إبراهيم. وليست شفاعة في الكل، بل إنقاذ الأبرار الذين في المدينة، أو إنقاذ المدينة كلها إن وُجد فيها عشرة فقط من الأبرار (تك ١٨ : ٢٣). وللأسف لم يوجد في كل المدينة عشرة من الأبرار.

وهنا نسمع عبارة جميلة قالها الله لما أراد إهلاك سادوم:

قال: "هَلْ أَخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ؟!!" (تك ١٨ : ١٧).

لم يشأ الرب أن يخفي عن عبده إبراهيم ما سوف يفعله، بسبب الحب الذي كان له في قلبه، والדالة التي كانت له عنده... وماذا عن لوط الساكن هناك؟ لماذا لم تُخبره يا رب؟! لعله لم يكن مستحقاً، لأنه لم يشهد للرب هناك... إنه كان مجرد واحد من (العشرة) الذين يشفع فيهم إبراهيم، إن وجدوا...! يكفي للوط أن يكلمه ملاك، مُرسل من الله إليه. ويكلمه كإنذار، مع بقاء الحكم بإهلاك المدينة.

يُضاف إلى ذلك أن لوط قد فقد هيئته وتأثيره في سادوم.

لم يستطع أن يصدّ أهل المدينة، لما أرادوا أن يُخطئوا إلى الملاكين، بل هزأوا به وقالوا: "جاءَ هذا الإنسانُ لِيَتَغَرَّبَ، (عندنا) وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الْآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا" (تك ١٩ : ٩).

وتوسل إليهم لوط أن يرتكبوا خطية أقل بشاعة فقال لهم: "لَا تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا. أَخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَلَا تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لَأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلَا تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي" (تك ١٩ : ٧، ٨). فلم يسمعا له، وقالوا له: "ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ".

إلى هذا المستوى هبط لوط. ولم تكن له هيبة حتى مع أصهاره.

قال له الملاكان: أن يخرج من ذلك المكان، هو وبنوه وبناته وأصهاره وكل من هو له... "فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الْأَخْذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: قُومُوا أَخْرِجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لِأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكُ الْمَدِينَةِ. فَكَانَ كَمَا زَحِ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ" (تك ١٩ : ١٤).

منذ متى تتكلم يا لوط عن الرب وعن عقابه للمدينة؟!

كلام جديد لم نسمعه منك منذ سنوات عشتها بيننا. لأول مرة تتطرق باسم الرب!! وهكذا فقد لوط هيئته وتأثيره، ولم يسمع له أحد. كان كما زح في أعين أصهاره. لم يكن كارراً أمامهم في يوم من الأيام، ولا مُعلِّماً، ولا خادماً. وما كان بينهم كشخصية قيادية يسمعون لها ويكونوا لكلمته وزن. لم يتمتع بذلك اللقب الذي أطلق على غيره من الأبرار، لقب "رجل الله".

كان لا بد لكلمة الحق والإنذار من شخصية مُهابة تقولها.

حتى لوط نفسه كان يتباطأ في الخروج من المدينة، مع مناداته لأصهاره أن يخرجوا منها! فكان الملاكان يستعجلانه. "وَلَمَّا تَوَأَى، أَمْسَكَ الرَّجُلَانِ بِيَدِهِ وَبَيَدِ امْرَأَتِهِ وَبَيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِسَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ" (تك ١٩ : ١٦).

مبارك هو الرب، الذي يشفق على الإرادة الضعيفة المترددة!

الذي يُشفق على الأيادي المُسْتَرْخِيَةِ وَالرُّكْبَ الْمُخْلَعَةَ (عب ١٢ : ١٢).
 الذي يقول على فم رسوله: "أَسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ. تَأَنَّنُوا عَلَى الْجَمِيعِ" (١ تس ٥ : ١٤). ومبارك هو عمل الملاكين الرحيمين اللذين أمسكا بأيدي هذه الأسرة، لينقذوها من الهلاك. ولولا ذلك لتعرض الجميع للهلاك. ومباركة هي شفاعة أبينا إبراهيم، إذ يقول الكتاب: "وَحَدَّثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللَّهُ مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسْطِ الْإِنْقِلَابِ" (تك ١٩ : ٢٩).

على أن امرأة لوط هلكت، هذه التي أمسك ملاك بيدها وأخرجها!

فلا بد للخلاص من تجاوب الإنسان مع عمل الله لأجله. وصدق القديس أغسطينوس في قوله: "إن الذي خلقك بدونك، لا يريد أن يخلصك بدونك". وهكذا فإن امرأة لوط لم تهلك داخل سادوم، بل خارجها. "وَنَظَرَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ" (تك ١٩ : ٢٦).

هلكت وهي وسط أسرتها، ولم ينفعها بر زوجها لوط. ولم يشفع فيها أحد الملاكين، ولا أبينا إبراهيم. وماتت دون أن تُتدب أو تُدفن. ولم يجرو أحد من أسرتها أن ينظر إلى الوراء ليراها! وصارت درسًا للأجيال. لمن يكون خارج

سادوم، ولكن قلبه بداخلها. لعلها كانت تفكر في كل أملاكها التي احترقت داخل سادوم.

وهكذا فقد لوط كل ما كان له في سادوم.

فقد كل أملاكه: الغنم والبقر والخيام، وفقد الأرض المُعشبة، وفقد امرأته التي صارت عمود ملح، وفقد كل عائلته وأصهاره، وروحياً فقد ابنتيه اللتين أخطأتا (تك ١٩ : ٣١ - ٣٧). كما أن نسلهما لم يُحسب ضمن شعب الله.

ولما مات لوط، مات بلا نسل ولا أملاك وكان قد سكن - بعد خراب سادوم - في مدينة صغيرة تُسمى "صوغر" (تك ١٠ : ٣٠ - ٣٢).

إنه بانفصاله عن عمه إبراهيم، كان قد انفصل عن كل بركة.

أما سادوم التي كان قد أعجب بها، التي ظن أنها "كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ" (تك ١٣ : ١٠) فقد احترقت بكبريت ونار أمطره الرب من السماء (تك ١٩ : ٢٤).

أما أبونا إبراهيم، فيقول عنه الكتاب: "وَبَكَرَ إِبْرَاهِيمَ فِي الْغَدِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَنَحَوَ كُلِّ أَرْضِ الدَّائِرَةِ، وَنَظَرَ وَإِذَا دُخَانُ الْأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الْأُتُونِ" (تك ١٩ : ٢٧، ٢٨).

لقد أدى هذا القديس واجبه بأقصى ما يستطيع، بكل دالة وحب. لكنه نجح فقط في إنقاذ لوط وابنتيه من حريق سادوم.

ولم نسمع بعد ذلك أن لوطاً عاد إلى عمه أْبْرَامَ، أو أنه انضم مرة أخرى

إلى تلك الأسرة المقدسة التي انفصل عنها بمحبة الأرض المُعشبة.
لقد تحققت أخيراً كلمة الرب لأبرام: "أَذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ
بَيْتِ أَبِيكَ" (تك ١٢ : ١). وكان لوط آخر هذه العشيرة.

صموئيل النبي

من هو صموئيل؟

هو أعظم نبي بعد موسى. وهو آخر قضاة بني إسرائيل. وهو أول من مَسَحَ ملوكًا للشعب. مسح شاول ثم داود. وهو إنسان نذير، اختاره الرب نبيًا في طفولته، وكلمه.

فما قصة هذا النبي العظيم؟ إنه ابن امرأة قديسة عاقر. وكثير من النساء العواقر، لما سمح الله أن يلدن، أنجبن أبناء عظماء، أو على الأقل أبناء مميزين عن غيرهم.

أليصابات كانت عاقرًا، ثم ولدت يوحنا الذي قال عنه الرب إنه أفضل من نبي، وأنه ملاك، وأعظم من ولدته النساء (مت ١١ : ٩ - ١١).

وامرأة منوح كانت عاقرًا، ثم ولدت شمشون أقوى رجل.

وراحيل كانت عاقرًا. ولما فتح الرب رحمها، ولدت يوسف الذي صار أبًا لفرعون، ومُتسلطًا على كل مصر (تك ٤٥ : ٨) ومثالًا للعفة.

وهكذا كان إسحاق ابن سارة، وهكذا كان صموئيل ابن حنة.

هل بدأت علاقته مع الله وهو طفل؟

كلا، بل قبل أن يولد، بل قبل الحبل به...

بدأت العلاقة، حينما طلبته أمه العاقر من الله، ونذرت له قبل أن يعطيها
 الله إياه...

كان صموئيل ابن الدموع وابن الصلاة والنذر. كيف ذلك؟

أمه القديسة العاقر

إنها حنة، التي كانت عاقراً على الرغم من قداستها، كان الله "قَدْ أَغْلَقَ رَحِمَهَا" (١ صم ١: ٥). وكانت ضررتها فننه تُغيظها، إذ كان لها أولاد... حتى في المكان المقدس في بيت الله في شيلوه، أغاظتها فننه حتى أنها بكّت، ولم تشأ أن تأكل من الذبيحة.

واساها زوجها ألقانة الذي كان يحبها، وأعطاهما نصيب اثنين، وقال لها: "لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ وَلِمَاذَا لَا تَأْكُلِينَ؟ أَمَا أَنَا خَيْرٌ لَّكَ مِنْ عَشْرَةِ بَنِينَ؟" كلا يا ألقانة، إنك لم تفهم نفسية المرأة العاقر، ولا عمق غريزة الأمومة. إن محبتها لزوجها شيء، ومحبتها لابن تلده شيء آخر، أعمق من محبة الزوج.

لقد سمح الله لضررتها أن تُغيظها، لكي تلجأ إليه...

قامت حنة، وذهبت إلى بيت الرب، وهي مُرة النفس، وصَلَّتْ، وبكّت بكاءً... ونذرت نذراً وقالت: "يَا رَبَّ... إِنْ نَظَرْتُ نَظَرًا إِلَى مَذَلَّةِ أَمَتِكَ... بَلْ أَعْطَيْتَ أَمَتَكَ زَرْعَ بَشَرٍ، فَإِنِّي أُعْطِيهِ لِلرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ" (١ صم ١: ١١).
 بكّت أمام الله بمرارة نفس. ولم يحتمل الله بكاءها.

هذا البكاء هو الذي قال عنه الرب لعذراء النشيد: "حَوِّلِي عَنِّي عَيْنَيْكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي" (نش ٦: ٥).

إنها دموع حقيقية، من نفس مرة. وليست من النوع الذي يصطنع البكاء ليُقال عنه إنه يصلي بدموع!

صلت حنة، وصلاتها لم تكن صلاة عادية. بل كانت مميزة جدًا.

كانت تصلي بعمق، وأكثرَت الصلاة من قلبها، وشفتها فقط تتحركان، دون أن يسمع صوتها. حتى ظنها عالي الكاهن سكرى، فقال لها: "حَتَّى مَتَى تَسْكُرِينَ؟ انْزِعِي حَمْرَكَ عَنْكَ" (اصم ١: ١٤).

عجيب هذا الأمر من كاهن الله، أن يدين امرأة قديسة، ويتهمها ظلمًا، أثناء عمق صلتها بالله... بدلًا من كلمة دعاء طيبة.

إن جرح الشعور الذي يصدر من أب كاهن، أمر مؤلم جدًا، وبخاصة لما فيه من قسوة وسوء ظن، ضد امرأة قديسة تسكب نفسها أمام الله!

إن الناس ينتظرون من الأب الكاهن أن يكون رقيقًا حنونًا، يواسي الحزانى وَيُطِيبُ خاطرهم. لا أن يقسو ويظن فيهم السوء!

ومع ذلك فإن القديسة حنة لم تعاتبه على ذلك، بل في انسحاق قلب، قالت له: "لَا يَا سَيِّدِي. إِنِّي امْرَأَةٌ حَزِينَةٌ الرُّوحِ وَلَمْ أَشْرَبْ حَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا، بَلْ أَسْكُبُ نَفْسِي أَمَامَ الرَّبِّ. لَا تَحْسِبْ أُمَّتَكَ ابْنَةً بَلِيعَالٍ" (اصم ١: ١٥، ١٦). استخدمت عبارات: سيدي، وجاريتك، وأمتك.

انسحاقها أتر في عالي الكاهن، فدعا لها أن يعطيها الرب سؤل قلبها الذي سألته منه. فتقبلت دعاه في إيمان، ونست قسوته الأولى. ومضت، وأكلت. "وَلَمْ يَكُنْ وَجْهَهَا بَعْدُ مُعَيَّرًا" (اصم ١: ١٨).

لم تقل في قلبها: "كيف أقبل دعاء هذا الكاهن القاسي؟!"

ورقتها استطاعت أن تغلب قسوته.

ودائمًا الرقة تغلب العنف. لأن الإنسان العنيف حينما يُجاب عليه برقة، يخجل من عنفه، ويخجل من رقة من يكلمه.

وذكر الرب حنة، واستجاب طلبتها، فحبلت وولدت ابنًا، ودعته صموئيل وانتظرت إلى أن فطمت الصبي، لتفي بنذرها وتُصعده إلى الرب.

أخذته إلى شيلوه، وألبسته جُبة صغيرة، وقدمته إلى عالي الكاهن. وقالت له: "حَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ يَا سَيِّدِي، أَنَا الْمَرْأَةُ الَّتِي وَقَفْتُ لَدَيْكَ هُنَا تُصَلِّي... فَأَعْطَانِي الرَّبُّ سُؤْلِي الَّذِي سَأَلْتُهُ" (اصم ١: ٢٦، ٢٧). وأصعدت معها ثلاث ثيران ذبيحة للرب. لأنها لا تستطيع أن تقف أمام الله فارغة (خر ٢٣: ١٥).

قدمت للرب ابنها الوحيد الذي طلبته منه بدموع، وفرحت بميلاده، وكأنها تقول للرب: "وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْتَنِيكَ" (أي ١١: ٢٩).

كانت جادة في نذرها، يكفيها أنها حبلت وأنجبت، ويكفيها أن الله قد استجاب صلاتها، وأنها لم تُعد عاقراً. ولأنها وَفَّت بنذرها، وهبها الله بعد ذلك ثلاث بنين وبنيتين (اصم ٢: ٢١).

صموئيل نذير الرب

كان صموئيل نذير للرب، قبل أن يُولد، نذرته أمه حينما طلبته من الرب. وهناك أنواع من النذيرين: شخص ينذر الرب لنفسه. مثل شمشون، كما قال الملاك الذي بَشَّرَ أمه بولادته: "لَأَنَّ الصَّبِيَّ يَكُونُ نَذِيرًا لِلَّهِ مِنَ الْبَطْنِ" (قض ١٣: ٥). وهناك من ينذر نفسه للرب. أما صموئيل فقد نذرته أمه. والتزم هو بهذا النذر، مع أن النذر لم يخرج من فمه، بل من فم أمه.

وكنذير للرب عاش حياته كلها مكرسًا لله، وقَبِلَ الله تكريسه. تربى في شيلوه "يَخْدُمُ أَمَامَ الرَّبِّ وَهُوَ صَبِيٌّ مُتَمَنِّطٌ بِأَفُودٍ مِنْ كَتَّانٍ. وَعَمِلَتْ لَهُ أُمُّهُ جِبَّةً صَغِيرَةً وَأَصْعَدَتْهَا لَهُ مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ" (١ صم ٢: ١٨، ١٩).

ولعل البعض يسأل ما هي شيلوه هذه؟

شيلوه هذه منطقة شمال بيت إيل، انتقلت إليها خيمة الاجتماع وتابوت العهد. وظلت الخيمة هناك ٣٠٠ سنة، إلى أن رجع تابوت العهد إلى جبعون، ثم إلى أورشليم أيام داود النبي.

فكانت شيلوه هي المكان المقدس الذي يذهب إليه الناس، ويذبحون للرب، ويقدمون نذورهم، ويصلون هناك.

وفي شيلوه كان عالي الكاهن الذي خدم معه صموئيل.

عاش صموئيل في عصر فاسد، إذ كان عصر القضاة من أفسد العصور. وقد قيل عنه: "فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ. كُلُّ وَاحِدٍ عَمِلَ مَا حَسَنَ فِي عَيْنَيْهِ" (قض ٢١: ٢٥). كان الناس أشرارًا. وبسبب شرهم كثيرًا ما دفعهم الله إلى أيدي أعدائهم فأذلّوهم.

حتى عالي الكاهن كان له ابنان: حفني وفينحاس، وكانا شريرين جدًا، يمارسان الشر حتى في خيمة الاجتماع.

ولكن الصبي صموئيل، كان يعيش في إيجابياته وروحياته، بعيدًا عن هذا الجو الرديء، لا شأن له به.

وكثيرًا من رجال الله عاشوا وسط أجواء رديئة، ولكنهم احتفظوا بقداستهم. فموسى النبي عاش في قصر فرعون، وسط عبادات غريبة لا تُحصى. ولكن الإيمان الذي في قلبه، كان أقوى من الوثنية المحيطة به.

ويوسف الصديق عاش في بيت فوطيفار، تُحيط به عثرة تضغط عليه من سيدته. ولكن العفة التي كان يتمسك بها، كانت أقوى من الخطية التي تضغط عليه. لم يتأثر بالعترة بل كان أقوى منها.

وهكذا عاش صموئيل في طفولته في جو فاسد... ولكن الخير الذي فيه، كان أقوى من الشر المحيط به.

بلغ من فساد جيله، أن الله غضب عليهم، وسمح أن يُهزموا في الحرب، ويؤخذ منهم تابوت العهد (اصم ٤: ١ - ١١).

المهم أنه في وسط هذا الجو الفاسد، اختار الله هذا الطفل صموئيل ليكون نبياً له. وهو بعد صبي صغير...

وكان هذا الصبي الصغير محبوباً من الله، صارت إليه كلمة الرب في زمن كانت كلمة الله فيه عزيزة وكذلك الرؤى (١صم ٣: ١)

كَلَّمَ اللهُ هَذَا الصَّبِيَّ الصَّغِيرَ، دُونَ أَنْ يُكَلِّمَ عَالِي الكَاهِنِ الشَّيْخَ. بَلْ أَرْسَلَ اللهُ رِسَالَتَهُ إِلَى عَالِي، عَنْ طَرِيقِ هَذَا الطِّفْلِ. ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ غَضِبَ عَلَى عَالِي الكَاهِنِ، لِأَنَّهُ لَمْ يُوَدِّبْ ابْنَيْهِ الشَّرِيرَيْنِ، وَلَمْ يَرُدِّعْهُمَا. بَلْ وَبَخَهُمَا فِي لَيْلٍ، لَا فِي حَزْمٍ. كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَعَاقِبَهُمَا، وَأَنْ يَطْرُدَهُمَا مِنَ الخِدْمَةِ فِي خِيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ لَهُمَا: "لَأَنِّي أَسْمَعُ بِأُمُورِكُمُ الْخَبِيثَةَ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ. لَا يَا بَنَيَّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا الْخَبَرُ الَّذِي أَسْمَعُ... فَإِنْ أَخْطَأَ إِنْسَانٌ إِلَى الرَّبِّ فَمَنْ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِهِ؟" (١صم ٢: ٢٣ - ٢٥)

وكلامه اللين فقد هيبته، فلم يسمع أبناؤه له. وغضب الله.

لعل هذا الأمر درساً لنا في التربية.

وأن هناك مواقفاً لا يصلح فيها اللين ولا الرقة، وإنما يجب فيها الحزم والقوة والتأديب "فَأَيُّ ابْنٍ لَا يُؤَدِّبُهُ أَبُوهُ؟" (عب ١٢: ٧).

كان صموئيل النبي يُمثل الطهارة في شيلوه. ولكنه في طفولته لم يكن قد وصل بعد إلى النضوج الذي يُميز فيه صوت الرب.

ناداه الرب، فظن الصوت صوت عالي الكاهن فذهب إليه. وتكرر الأمر. فقال له عالي الكاهن إن دعاك الصوت مرة أخرى فقل: "تَكَلَّمَ يَا رَبُّ لَأَنَّ

عَبْدَكَ سَامِعٌ" (اصم ٣: ٩). وفعل صموئيل هذا، فَبَلَّغَهُ الرب رسالة صعبة ينقلها إلى عالي الكاهن، يقضي فيها على بيت عالي إلى الأبد، "مِنْ أَجْلِ الشَّرِّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ بَنِيهِ قَدْ أَوْجَبُوا بِهِ اللَّعْنَةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَرُدَّ عَنْهُمْ" لذلك قال الرب: "أَقْسَمْتُ لِبَيْتِ عَالِي أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ عَنْ شَرِّ بَيْتِ عَالِي بِذَبِيحَةٍ أَوْ بِقَدَمَةٍ إِلَى الْأَبَدِ" (اصم ٣: ١١ - ١٤).

وخاف صموئيل أن يُبلغ عالي الكاهن هذه الرسالة الصعبة.

حقًا ما أجمل أقدام المُبشرين بالخيرات (إش ٥٢: ٧). أما أن يُبلغ صموئيل الكاهن الشيخ برسالة من الله عن خراب بيته، فكان هذا الأمر صعبًا عليه. ولكن عالي طلبه وسأله عن رسالة الرب وقال له: "هَكَذَا يَعْمَلُ لَكَ اللَّهُ وَهَكَذَا يَزِيدُ إِنْ أَخْفَيْتَ عَنِّي كَلِمَةً مِنْ كُلِّ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَكَ بِهِ" (اصم ٣: ١٧) فأخبره صموئيل بجميع الكلام.

وَنَفَذَ اللَّهُ إِنْذَارَهُ، وَهَزَمَ الشَّعْبَ فِي الْحَرْبِ، وَقَتَلَ فِيهَا حَفَنِي وَفِينَحَاسَ ابْنَا عَالِي، وَأَخَذَ تَابُوتَ الْعَهْدِ. ولما سمع عالي بالخبر، وَقَعَ مِنْ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَمَاتَ... لقد كان أخذ تابوت العهد منهم دليلاً على غضب الله عليهم وتخليه عنهم...

وخلا الجو تمامًا ليكون صموئيل هو سيد الموقف.

صموئيل النبي

يقول الكتاب: "وَعَرَفَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ مِنْ دَانَ إِلَى بَثْرَ سَبْعَ أَنَّه قَدْ أُوتِمِنَ صَمُوئِيلُ نَبِيًّا لِلرَّبِّ" (١صم ٣: ٢٠). واصططح الرب مع الشعب، "وَعَادَ الرَّبُّ يَنْزَأَى فِي شَيْلُوه" (١صم ٣: ٢١).

بعد موت عالي الكاهن، كان صموئيل قد كَبُرَ، وصار قاضيًا للشعب. ولكن فترة قضائه لم تُدَكِّرْ لنا بالتفصيل. وكان لصموئيل أولاد، ولم يكونوا في مثل روحياته، بل كانت لهم أخطاء.

وبدأ الشعب أن يطلب له ملكًا يحكمهم. وحزن صموئيل إذ شَعَرَ أَنَّهُمْ رَفَضُوهُ. فقال له الرب: "أَتَهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّاي رَفَضُوا" (١صم ٨: ٧). فما معنى هذه العبارة؟

كان الشعب في ذلك الزمان يحكمهم الله عن طريق أنبيائه.

كان حكمًا ثيوقراطيًا. فطلبهم ملكًا، معناه رفض الله كملك.

العجيب أن الله مع قوله: "إِيَّاي رَفَضُوا"، قال لصموئيل: "اسْمَعْ لَصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ" (١صم ٨: ٧).

لم يرفضهم الرب إذ رفضوه، ولم يُعاقِبهم عقابًا شديدًا على رفضهم إياه، بل استجاب لطلبتهم مع أنها كانت ضده، وكانت ضدهم أيضًا. وقد أُنْذِرهم بهذا وبسيطرة الملك الذي يطلبونه واستبداده بهم (١صم ٩: ١٨).

قال لصموئيل: "قَالَانَ اسْمَعْ لَصَوْتِهِمْ. وَلَكِنْ أَشْهَدَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَخْبِرْهُمْ بِقَضَاءِ الْمَلِكِ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ... فَتَضَرَّخُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ وَجْهِ مَلِكِكُمْ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ لَأَنْفُسِكُمْ..." (١صم ٨: ٩، ١٨). "قَابَى الشَّعْبُ أَنْ يَسْمَعُوا لَصَوْتِ صَمُوئِيلَ، وَقَالُوا: لَا بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ، فَكَوْنُ نَحْنُ أَيْضًا مِثْلَ سَائِرِ الشُّعُوبِ". وللمرة الثانية "فَقَالَ الرَّبُّ لَصَمُوئِيلَ: اسْمَعْ لَصَوْتِهِمْ وَمَلِكٌ عَلَيْهِمْ مَلِكًا" (١صم ٨: ١٩، ٢٢).

ما أعجبك يا رب في طول أناتك! وفي احتمالك لرافضيك!

وما أعجب هذا الدرس الذي تُعلمه لصموئيل، لينفذه!

نفذَ الله طلبهم في رفضهم له، واختار لهم شاول ملكًا لهم "فَكَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقَ" (١صم ١٠: ٢٣). كل ذلك مع أن الله كان يعرف ماذا سيكون شاول! وكيف سيستقل عن الله!

أحيانًا يمنع الله الإنسان عن الشر قبل ارتكابه، وأحيانًا يتركه لحريته حتى يُقاسي نتيجة شره، فيرجع إلى نفسه.

فما لا يفعله الإنسان بالطاعة، يعود فيعرف حكمته بالخبرة.

إن الله لم يمنع سليمان من حياة الترف، إلى أن عاد أخيرًا وقال: "بَاطِلُ الْأَبَاطِيلِ... الْكُلُّ بَاطِلٌ وَقَبِضُ الرِّيحِ" (جا ١: ٢، ١٤). ولم يمنعه من الزواج بعديد من النساء، إلى أن اختبر بنفسه، كيف "فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةٍ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى" (١مل ١١: ٤).

وهكذا لم يمنح شعب إسرائيل أن يكون لهم ملك غيره، وأن يكون من سبط بنيامين، مع أن مشيئة الله كانت تتجه إلى سبط يهوذا.

والعجيب أيضًا أن الله سمح أن ذلك الملك ينال من نبيه مسحة مقدسة، وأن يحل عليه روح الله، وأن يتنبأ!!

أخذ صموئيل قنينة الدهن، بما فيها من زيت المسحة المقدس، وصبَّ على رأس شاول وقبله وقال له: "لَأَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَسَحَكَ عَلَى مِيرَاثِهِ رَئِيسًا؟" (اصم ١٠: ١).

"اللَّهُ أَعْطَاهُ قَلْبًا آخَرَ". ولما تقابل مع الأنبياء، تنبأ مثلهم، حتى أندهش الناس قائلين: "أَشَاوُلُ أَيْضًا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؟" (اصم ١٠: ٩، ١١).

وهنا يُنفذ الرب وصيته التي قالها فيما بعد: "أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ... أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ" (مت ٥: ٤٤).

وبمسخ شاول ملكًا، صارت هناك سُلْطَتَان: سلطة مدنية ممثلة في شاول الملك، وسلطة إلهية ممثلة في صموئيل النبي. وكانت سلطة النبي أعلى. وسلطة الملك في سيطرته أقوى. وعلى مدى الزمن، كان الملوك يمسحهم الأنبياء، ثم صار الملك بالوراثة...!

وخالف شاول كلام الله في حروبه. ولم يعد الله يرضى عليه.

وأخبره صموئيل بأن الله سيمزق مملكته عنه. وكان شاول يحترم صموئيل ويخافه، لأن أحكامه صادرة من الرب.

ومن رقة قلب صموئيل أنه: "تَاحَ عَلَى شَاوُلَ" (اصم ١٥ : ٣٥).

"قَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: حَتَّى مَتَى تَتَوَحُّ عَلَى شَاوُلَ، وَأَنَا قَدْ رَفَضْتُهُ"
 (اصم ١٦ : ١). وأرسله إلى بيت لحم، ليمسح ملكًا.

ذهب صموئيل إلى بيت لحم "فَازْتَعَدَّ شُيُوخُ الْمَدِينَةِ عِنْدَ اسْتِقْبَالِهِ وَقَالُوا:
 أَسَلَامٌ مَحَبُّكَ؟ فَقَالَ: سَلَامٌ. قَدْ جِئْتُ لِأَذْبَحَ لِلرَّبِّ. تَقَدَّسُوا وَتَعَالَوْا مَعِيَ إِلَى
 الذَّبِيحَةِ" (اصم ١٦ : ٤، ٥). إنه لم يكذب. إنما أخبرهم بالخطوة الأولى فقط
 التي سيفعلها. وفعلًا قدم ذبيحة، وَقَدَّسَ أَبْنَاءَ يَسَى ودعاهم إلى الذبيحة.

العجيب هنا، أن الله لم يكن قد كشف من سيختاره.

فلما رأى أليآب، قال: "إِنَّ أَمَامَ الرَّبِّ مَسِيحَهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: لَا
 تَنْتَظِرْ إِلَى مَنْظَرِهِ وَطُولِ قَامَتِهِ لِأَنِّي قَدْ رَفَضْتُهُ". كذلك لم يقع اختيار الرب
 على كل أبناء يسى السبعة الكبار. وبقي الصغير داود الذي كان مع الغنيمات
 القليلات في البرية. فاستدعاه. وهنا قال الرب لصموئيل: "قُمْ امْسَحْهُ، لِأَنَّ هَذَا
 هُوَ" (اصم ١٦ : ٦، ٧، ١٢).

ومسح صموئيل داود ملكًا، فحلَّ روح الرب على داود. ثم تركه صموئيل
 وذهب إلى الرامة (اصم ١٦ : ١٣).

وهكذا كان صموئيل أول من مسح الملوك. وبهذه المسحة كان روح الله
 يحل عليهم. فكأنه كان واسطة في حلول روح الرب على هؤلاء المُسَحَّاء وفيما
 نالوه من مواهب.

بعد ذلك ترك الأمر للملوك، ويبدو أنه اختفى عن الساحة.

وكان صموئيل قد شاخ. ولكنه قبل موته دعا الشعب.

وأشهدهم على نفسه قائلاً: "أَنَا فَقَدْ شَخْتُ وَشَبْتُ... فَأَشْهَدُوا عَلَيَّ قُدَّامَ الرَّبِّ... ثَوَّرَ مَنْ أَخَذْتُ؟ وَحَمَارَ مَنْ أَخَذْتُ؟ وَمَنْ ظَلَمْتُ؟ وَمَنْ سَحَقْتُ؟... فَقَالُوا: لَمْ تَظْلِمْنَا وَلَا سَحَقْتَنَا وَلَا أَخَذْتَ مِنْ يَدِ أَحَدٍ شَيْئًا" (اصم ١٢ : ٢ - ٤).
 ثم كلمهم بصراحة عن طلبهم ملكًا. فقالوا: قد أخطأنا في ذلك، والآن "صَلِّ عَنْ عِبِيدِكَ"... فقال: "حَاشَا لِي أَنْ أُخْطِئَ إِلَى الرَّبِّ فَأَكْفَ عَنْ الصَّلَاةِ مِنْ أَجْلِكُمْ" (اصم ١٢ : ١٩ ، ٢٣)

ومات صموئيل، وندبه جميع إسرائيل، ودفن في بيته في الرامة.
 (اصم ٢٥ : ١).

صموئيل النبي مع شاول المَلِك

تابوت العهد

لما ساد الفساد أيام عالي الكاهن، هجم الفلسطينيون على البلاد، وهزموا اليهود، وأخذوا تابوت العهد منهم، وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً، مع أن تابوت العهد كان في وسطهم، ومات في الحرب ابنا عالي الكاهن حفني وفينحاس (اصم ٤: ١٠، ١١). ولما سمع عالي الكاهن باستيلاء الفلسطينيين على تابوت عهد الرب، سَقَطَ عَنِ الْكُرْسِيِّ إِلَى الْوَرَاءِ إِلَى جَانِبِ الْبَابِ، فَأَنْكَسَرَتْ رَقَبَتُهُ وَمَاتَ، لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا شَيْخًا (اصم ٤: ١٨).

كيف حدث هذا، أن تابوت العهد كان في وسطهم، وانهزموا؟!

لم يكونوا مُستحقين أن يكون التابوت وسطهم بسبب فسادهم.

ولم يكن لهم الإيمان الذي به يتدخل الرب لنصرتهم.

مثال ذلك إنسان يكون الإنجيل في جيبه، ولا تكون وصايا الإنجيل في

قلبه! فلا ينال بركة الإنجيل.

هكذا شعب هذا العصر الفاسد، أخذوا التابوت معهم إلى الحرب لكي ينتصروا على الرغم من وجود الفساد في حياتهم!! كان تابوت الرب معهم، دون أن ينزعوا الآلهة الغريبة من وسطهم. وذهبوا بخبيتهم إلى الحرب فانهزموا. وسُبِّي التابوت أيضًا وأخذته الفلسطينيون. وزال المجد من إسرائيل....!

إنهم كإنسان يقول صُمت وصليت، وأقمت قداديس من أجل موضوع مُعين، ولم يستجب الرب لي. ذلك لأنه صلى وصام وهو يستبقي الخطية في قلبه، فلم تُجِدِ صلاته شيئاً.

كذلك هؤلاء الناس كانوا يظنون أنهم يحاربون حرباً مقدسة وانهزموا!! بينما الحرب - حتى لو كانت مقدسة - ينبغي أن يتم النصر فيها على أيدي أشخاص طاهرين.

أما هم، فلم يقبل الرب أن يجعل النصر على أيديهم وهم خُطاة!

يُذكرونني بعصا أليشع النبي حينما كانت في يد جيجزي، لم تستطع أن تُقيم ابن الشونمية من الموت. بينما لما صارت في يد النبي أليشع، صنعت المعجزة (٢مل ٤: ٢٩ - ٣٢).

إن عصا موسى كانت تُعمل بها المعجزات، لأنها كانت في يد موسى. لم تكن القوة في العصا، إنما في اليد التي تُمسك العصا، أو كانت القوة في إيمان من يحمل هذه العصا في يده...

كذلك التابوت لم تظهر قوته، حينما حمله أولئك الخطاة. مع أن تابوت عهد الرب وقتذاك، كان رمز إلى حلول الله وسطهم...

على أن تابوت الرب لم يفقد قوته. فلما أدخله الفلسطينيون إلى أشدود، ووضعوه إلى جوار صنم داجون، سقط ذلك الصنم أمامه وانكسر (١صم ٥: ١-٤) وأصاب الشعب ضربات. فلم يجدوا حلاً إلا أن يُرجعوا التابوت إلى أصحابه (١صم ٦).

صموئيل النبي

بعد موت عالي الكاهن، التابوت نُقِلَ إلى شيلوه، التي لم تُعد لها قيمة بعد، وخيمة الاجتماع مع التابوت نُقِلَ إلى قرية يعاريم. وصموئيل ذهب إلى الرامة، القرية التي وُلِدَ فيها، وظل مُختفياً حوالي عشرين عاماً لا نعرف عنها شيئاً، ثم ظهر وهو في سن الثلاثين تقريباً. وصار قاضياً للشعب، وقضى له كل أيام حياته (١ صم ٧: ١٥). وكان قد تزوج وأنجب...

ولعل العشرين سنة التي قضاها مُختفياً كانت فترة امتلاء واستعداد.

بدأ يعمل من أجل الشعب ونَجَحَ، أصبح اسمه معروفاً، وصار أقوى شخصية في جيله.

كان أقوى وأسمى من شمشون الجبار. شمشون كان هدفه أن يُخلص الشعب من الأعداء المُحيطين به بقوة عضلاته وقوة يده. أما صموئيل فدخل إلى الأعماق فدعا الناس أولاً إلى التوبة. وهكذا كلمهم قائلاً: "إِنْ كُنْتُمْ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ رَاجِعِينَ إِلَى الرَّبِّ، فَنَزِعُوا إِلَهِةَ الْغَرِيبَةِ وَالْعَشْتَارُوتَ مِنْ وَسْطِكُمْ، وَأَعِدُّوا قُلُوبَكُمْ لِلرَّبِّ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، فَيُنْقِذَكُم" (١ صم ٧: ٣، ٤). ففعلوا كذلك وعبدوا الرب وحده.

شمشون خلصهم من الأعداء الخارجيين، ولم يُنقذهم من الفساد الداخلي، بل هو نفسه وقع في الفساد. أما صموئيل فطهرهم من الداخل.

واجتمع الشعب، وسكبوا ماء أمام الرب وصاموا... وقالوا: "قَدْ أَخْطَأْنَا إِلَى الرَّبِّ" (اصم ٧: ٦). وبعدها قَدَّمَ صموئيل عنهم محرقة للرب. وبعدها انتصروا على أعدائهم. وهكذا وضع صموئيل الوسيلة السليمة للانتصار. وهي الصُّلح مع الله أولاً، وتنقية القلب قبل الخروج إلى الحرب...

كان صموئيل إنساناً نقي القلب، ورجل صلاة.

حبلت به أمه، وهي في حالة قداسة، وولدتها قديساً مثلها. وعاش طفولته في هيكل الله، الذي يقول عنه الرب: "بَيْنِي بَنَيْتَ الصَّلَاةَ يُدْعَى" (إش ٥٦: ٧). وكان يلجأ إلى الصلاة في كل مناسبة، ويحل مشاكل الشعب بالصلاة. ولذلك نقرأ كثيراً في حياته هذه العبارة: "وَصَرَخَ صَمُوئِيلُ إِلَى الرَّبِّ" (اصم ٧: ٩)، "قَدَعَا صَمُوئِيلُ الرَّبَّ" (اصم ١٢: ١٨).

والشعب نفسه كان يقول له: "لَا تَكُفَّ عَنِ الصُّرَاخِ مِنْ أَجْلِنَا إِلَى الرَّبِّ إِلَهِنَا فَيُخَلِّصَنَا..." (اصم ٧: ٨). وهو نفسه قال عبارته الخالدة: "أَمَّا أَنَا فَحَاشَا لِي أَنْ أُخْطِئَ إِلَى الرَّبِّ فَأَكُفَّ عَنِ الصَّلَاةِ مِنْ أَجْلِكُمْ..." (اصم ١٢: ٢٣).

كان يعتبر الصلاة واجباً من واجباته، وإذا كان شخصاً مقبولاً أمام الله، صارت صلاته مقبولة عن الشعب... وما أجمل هذه العبارة في حياته: "تَكَلَّمْ يَا رَبُّ لِأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ" (اصم ٣: ٩، ١٠).

ليتنا نستفيد من هذه العبارة في حياتنا، ونقول للرب:

هي ذي الأذن وقد أخليتها من حديث الناس حتى أسمعك

لقد استحق صموئيل أن يُكلّمه الله دون عالي الكاهن...

وما أجمل قول الكتاب عنه: "وَكَبِرَ صَمُوئِيلُ وَكَانَ الرَّبُّ مَعَهُ، وَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا مِنْ جَمِيعِ كَلَامِهِ يَسْقُطُ إِلَى الْأَرْضِ" (١صم ٣: ١٩).

إنه يُمثّل وسطاً بين عهدين: بين عهد الفساد وعهد النعمة. بين عهد اخفت فيه الرؤى والإعلانات، وعهد عادت فيه العلاقة بين الله والناس. فكان سبب صلح بين الله والناس.

كان سفيراً لله يحمل رسالته إلى الناس.

لا يهم إن كانت رسالة بركة أم عقوبة. فالمهم أن يُوصلها.

هكذا فعَل مع عالي الكاهن، وهكذا فعَل مع شاول الملك.

وصار قاضياً يقضي بين الناس لمدة أربعين سنة. فكان رئيساً للشعب، ووسيطاً بينهم وبين الله. وكانوا يدعونه الرائي (١صم ٩: ١٦). فكان الناس يستشيرونه في كل شيء، ويطلبون كلمة الله من فمه. ولما التقى في أول مرة مع شاول، قال له: "قِفِ الْآنَ فَأُسْمِعَكَ كَلَامَ اللَّهِ" (١صم ٩: ٢٧).

وباعتباره الرائي، كان صموئيل رجلاً مفتوح العينين. وكثير من حوادث المستقبل كانت مكشوفة أمامه...

وكان مُهاباً جداً من جميع الناس. يشعرون أن حُكمه هو حُكم الله، وهو يُمثّل الله على الأرض.

كان آخر القضاة، وفي عهده ظهر شاول أول الملوك.

وفي عهد هذا الملك، لم يكن صموئيل النبي يحكم الشعب، إنما كان الملك يحكم، تحت سلطانه، يخافه ويحترمه ويهابه، ويمكن لصموئيل أن يؤبّخه...

شاؤل الملك وبداية طيبة

* كان من سبط بنيامين، وهو أصغر الأسباط.

* وهو أول ملك مُسح لليهود، بعد عصر القضاة.

* بدأ حياته بداية طيبة، وانتهت حياته بمأساة.

كان جميلاً في منظره، ويوحى شكله بالمهابة والجمال. قال عنه الكتاب: "شَابٌّ وَحَسَنٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ. مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقُ كَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ" (١صم ٩: ٢)، (١صم ١٠: ٢٣). ولما قدمه صموئيل للشعب، قال لهم: "أَرَأَيْتُمْ الَّذِي اخْتَارَهُ الرَّبُّ، أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الشَّعْبِ؟" (١صم ١٠: ٢٤).

وكان مطيعاً لوالده، لما أمره بالبحث عن الأتْن الضائعة.

عبر الكثير من الأراضي للبحث عنها: في جبل أفرام، وفي أرض شليشة، وفي أرض شَعْلِيمَ، وفي أرض بنيامين، وفي أرض صوف. ولما لم يجدها وتأخر اهتم بمشاعر أبيه، وقال لعلامه الذي معه: "تَعَالَ نَرْجِعْ لِنَلَأَ يَنْزُكَ أَبِي الْأَتْنِ وَيَهْتَمَّ بِنَا". ثم بناء على نصيحة الغلام ذهب إلى حيث كان يوجد صموئيل النبي الذي كانوا يلقبونه بالرائي. فأخبره صموئيل بأنها قد وُجدت.

ولما تقابل مع صموئيل النبي خاطبه باتضاع:

قال له صموئيل: "وَلِمَنْ كُلُّ شَيْءٍ إِسْرَائِيلَ؟ أَلَيْسَ لَكَ وَلِكُلِّ بَيْتِ أَبِيكَ؟".
 فأجابه باتضاع وقال: "أَمَّا أَنَا بَنِيَامِينِي مِنْ أَصْغَرِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ، وَعَشِيرَتِي
 أَصْغَرُ كُلِّ عَشَائِرِ أَسْبَاطِ بَنِيَامِينٍ؟ فَلِمَذَا تُكَلِّمُنِي بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ؟" (١ صم ٩:
 ٢٠، ٢١).

ولما طلب بنو إسرائيل أن يكون لهم ملك، اختاره الرب لهم.

مع أن هذا الأمر يُعتبر رفضاً للرب الذي كان يملك عليهم عن طريق
 رجاله من القضاة. ولما تضايق صموئيل النبي من طلب الشعب، قال له
 الرب: "اسْمَعْ لَصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ
 بَلْ إِيَّاي رَفَضُوا حَتَّى لَا أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ" (١ صم ٨: ٧). وهكذا نرى الرب الإله
 عجباً في لطفه وفي معاملته لرافضيه، وفي سماعه لصوت الشعب مع أن
 ذلك كان ضد مشيئته الإلهية.

ومع ذلك اختار لهم الرب شخصاً كان من أفضل الموجودين بالنسبة لهم.
 وسمح أن نبيه صموئيل يمدحه ويقول عنه: "أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الشَّعْبِ"
 (١ صم ١٠: ٢٤).

وحل روح الرب على شاول بعد مسحه ملكاً، وتنبأ.

عجيب عمل الرب في شاول: أرسل صموئيل النبي بقنينة من الدهن
 المقدسة، فصَبَّهُ على رأسه وَقَبَّلَهُ، وقال له: "أَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَسَحَكَ عَلَى مِيرَاثِهِ
 رَئِيسًا" (١ صم ١٠: ١)، "وَكَانَ عِنْدَمَا أَدَارَ كِتِفَهُ لِكَيْ يَذْهَبَ مِنْ عِنْدِ صَمُوئِيلَ
 أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ قَلْبًا آخَرَ" (١ صم ١٠: ٩). وحدثت آيات في ذلك اليوم.

وحل روح الرب على شاول، ففتنبأ شاول حتى تعجب الناس وقالوا: "أَشَاوُلُ
 أَيْضًا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؟" (١ صم ١٠ : ١١).

أي كرم من الله كل هذا؟! على الرغم من أن الأمر كله ضد إرادته، ومع
 ذلك فإن الرب يختار الشخص، ويمتدحه، ويعطيه قلبًا آخر، ويحل عليه روح
 الرب، ويتنبأ...

حدث أيضًا أن يد الرب كانت معه حتى بعد خطيته الأولى:

واستطاع هو ويوناثان أن يهزموا جيشًا. وقال الكتاب عن شاول: "وَحَارَبَ
 جَمِيعَ أَعْدَائِهِ حَوَالِيهِ: مُوَابَ وَبَنِي عَمُونَ وَأُدُومَ وَمُلُوكَ صُوبَةَ وَالْفِلِسْطِينِيِّينَ.
 وَحِينَئِذَا تَوَجَّهَ غَلَبَ. وَفَعَلَ بِبَاسٍ وَضَرَبَ عَمَالِيقَ..." (١ صم ١٤ : ٤٧، ٤٨).

إذا ما هو سر التحول في تاريخ شاول؟ أهو في شخصيته.

التحول وسببه

كيف تَحَوَّلَ شاول من إنسان وديع متواضع، إلى إنسان مرفوض من الله،
 وقيل في ذلك: "وَالرَّبُّ نَدِمَ لِأَنَّهُ مَلَكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ" (١ صم ١٥ : ٣٥).
 ولما ناح عليه صموئيل، قال له الرب: "حَتَّى مَتَى تَتَوَخَّعُ عَلَى شَاوُلَ، وَأَنَا قَدْ
 رَفَضْتُهُ" (١ صم ١٦ : ١).

كيف وَصَلَ شاول إلى هذا الوضع؟

قال داود في رثاء شاول بعد موته: "كَيْفَ سَقَطَ الْجَبَابِرَةُ وَبَادَتْ آلاَتُ
 الْحَرْبِ!" (٢ صم ١ : ١٩، ٢٧). فلا تظنوا يا إخوتي أن كل الذين سقطوا كانوا

ضعفاء! كلا، فقد قيل عن الخطية: "أَنَّهَا طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرَحَى، وَكُلُّ قَتْلَاهَا أَقْوِيَاءُ" (أم ٧: ٢٦).

فكيف سقط هذا الجبار العجيب الذي كان من كتفه فما فوق أطول من جميع الشعب. هذا كان أول شخص في التاريخ يُمسح ملكًا بالدهن المقدس من نبي الله!... أول إنسان سُمي مسيح الرب كملك.

قصة سقوطه يرويها الأصحاح ١٣ من سفر صموئيل الأول.

ولكي أقصها عليكم، أحب أن أذكر ملاحظة هامة. وهي أن الله حينما يختبر أي إنسان، لا يفترض اختباره بطريقة صعبة. ربما بشيء بسيط تظهر به طاعته أو معصيته. كما اختبر آدم وحواء بمجرد نهيهما عن ثمر إحدى أشجار الجنة. فأكلا وسقطا ذلك السقوط العظيم الذي استلزم التجسد الإلهي والفداء.

تأخر عليه صموئيل في المجيء. وكان الشعب في ضنك أثناء الحرب. ففكر شاول (ولم يكن من رجال الكهنوت) أن يقدم محرقة للرب وبعد أن أصعد المحرقة، أتى صموئيل. فسأله عما فعل. فبرر موقفه بتأخر صموئيل، وتعب الشعب، وتجمع الأعداء. ولذلك قال: "فَتَجَلَدْتُ وَأَضَعَدْتُ الْمُحْرَقَةَ" (١صم ١٣: ١٢).

فقال له صموئيل: "قَدْ انْحَمَقْتُ! لَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّةَ الرَّبِّ إِلَهِكَ" (١صم ١٣: ١٣).

لو أن شاول صَبَرَ قليلاً، لكان صموئيل قد حضر، وما أعوزه الأمر أن يُخطئ تلك الخطية الكبيرة! لو أنه آمن أن الرب لا بد سيعمل وسينصره في الحرب، لأن الحرب للرب، ما كان قد أخطأ. لكن كان سبب سقوطه هو عدم إيمانه بعمل الرب ولو تأخر، عدم ثقته في مجيء صموئيل النبي ولو تأخر. مع اعتماده على عقله وفكره وحُسن تدبيره...

وظنّ في حماقته أنه بتقديم الذبيحة يتضرع إلى الرب لكي يتدخل. ونسى في كل ذلك أن الطاعة أفضل من تقديم الذبائح.

لذلك استحق أن يسمع العقوبة من فم صموئيل النبي:

الذي قال له: "وَأَمَّا الْآنَ فَمَمْلِكْتُكَ لَا تَقُومُ. قَدْ انْتَخَبَ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ رَجُلًا حَسَبَ قَلْبِهِ" (١ صم ١٣: ١٤). وقصد بذلك داود الذي سيختاره الرب فيما بعد، بحيث يكون "حسب قلبه" - أي "حسب مشيئة الله"، وليس حسب هواه الشخصي.

إن الرب حينما سمح بإقامة شاول ملكاً، أراد أن يكون ملكاً تحت إرشاده الإلهي. أما شاول فسلك حسب هواه مستقلاً عن الله.

وكانت هذه هي مشكلة شاول الكبرى... أو كانت بدء مشاكله.

عمله... فحمى غضب الرب عليهم...

"وَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ عَزِيزَةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ" (اصم ٣: ١).

لا أنبياء يتكلم الله على ألسنتهم، ولا رؤى ولا استعلانات. لم تكن لدى الرب رغبة في الكلام معهم! ولا كان بينهم من يستحق أن يحدثه الرب، أو أن يستأمنه على رسالة يوصلها إلى الناس... ولم تكن هناك صلة بين الله والناس، الذين عاشوا في قحط روحي.

وأسوأ ما وصل إليه عصر القضاة، كان في أيام عالي الكاهن.

وكان عالي شيخاً متقدماً في الأيام، وقد قضى للشعب أربعين سنة. وكان أولاده أشراراً يرتكبون النجاسة مع النساء في باب خيمة الاجتماع (اصم ٢: ٢٢). ويغتصبون لحم الذبائح لأنفسهم (اصم ٢: ١٢ - ١٧)، واستهانوا بنقدمة الرب. وسمع عالي بما كان يفعله بنوه (اصم ٣: ٢٢). ولكنه لم يردعهم (اصم ٣: ١٣). بل كان توبيخه لهم هيناً وليس بحزم...

وأخيراً وجد الله مكاناً في أحشاء القديسة حنة زوجة ألقانة ليخرج منه نبي للرب:

القديسة حنة

كان الله يريد أن تلد حنة ابناً تثنى للرب لخدمته.

ولكن كيف هذا، ونساء كثيرات يبخلن على الله بأولادهن؟ لهذا شاءت الخطة الإلهية أن يغلق الرب رحم حنة فلم تلد (اصم ١: ٥). وكانت لها ضرة

ذات بنين فكانت تُغيظها، والله ساكت، لأن الوقت المُحدد لخطته الإلهية لم يكن قد أتى بعد... وظلت فنَّةٌ تفتخر بأولادها وتغيظ حنة، قد بكت حنة ورفضت أن تأكل...

عجيب أن تفتخر فنَّةٌ بأمر لا فضل لها فيه!

وتغيظ حنة على أمر لا ذنب لها فيه!

حقًا، ما ذنب حنة في أنها كانت عاقراً؟! ما ذنبها، والله هو الذي أغلق رحمها فلم تلد؟! لهذا حسناً قال الكتاب: "المُسْتَهْزِئُ بِالْفَقِيرِ يُعَيِّرُ خَالِقَهُ" (أم ١٧: ٥). وكان استهزاء ضررتها بها في مكان مقدس، في شيلوه حيث توجد خيمة الاجتماع. واستمر إغاضة فنَّةٌ لحنة...

عجيب يا رب هذا. لماذا حنة البارة كئيبة، وضُرَّتْها الشريرة فرحة ومُبْتَهِجة ولها أولاد، وتبدو حالتها أفضل؟! وقد يجيب الله: أولاد فنَّةٌ سيكونون نكرات لا يشعر العالم بهم...! أما حنة العاقر فسيخرج من أحشائها نبيّ عظيم. إذا انتظري الرب يا حنة. "لِيَشَدِّدْ وَلِيَشَجِّعْ قَلْبُكَ، وَانْتَظِرِ الرَّبَّ" (مز ٢٧: ١٤).

ولم تجد حنة أمامها، سوى أن تلجأ إلى الرب وتسكب نفسها أمامه بعمق، وهي مرة النفس.

يقيناً إنه من أعمق الصلوات التي يصلّيها الإنسان، هذه التي يصلّيها وهو مُر النفس، وهو في ضيقة...

وهكذا كان موعد الخُطة الإلهية يقترب...

ما أعمق تلك الصلاة التي صلتها حنة، وهي في مذلتها...

صليت صلاة، وبكت بكاء، ونذرت نذرًا (اصم ١: ١٠، ١١). لقد سمح الله بإغاضة ضرتها لها، وخدشها لمشاعرها حتى وقت الأكل من الذبيحة... كل ذلك لكي تصل إلى ذلك النذر، حيث قالت للرب: "إِنْ نَظَرْتُ نَظْرًا إِلَى مَذَلَّةِ أَمَتِكَ، وَذَكَرْتَنِي وَلَمْ تَنْسَ أَمَتَكَ بَلْ أُعْطِيتَ أَمَتَكَ زَرْعَ بَشَرٍ، فَإِنِّي أُعْطِيهِ لِلرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ، وَلَا يَعْلُو رَأْسُهُ مُوسَى" (اصم ١: ١١).

طلبت أن يعطيها الرب ابنًا، فالبنون ميراث من عند الرب (مز ١٢٧: ٣). إن الله الذي أغلق رحمها، هو قادر أن يفتح رحمها لتلد. هو الذي: "يَفْتَحُ وَلَا أَحَدٌ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلَا أَحَدٌ يَفْتَحُ" (رؤ ٣: ٧).

"كَانَتْ تَكَلِّمُ اللَّهَ فِي قَلْبِهَا، وَشَفَّاهَا فَقَطَّ تَتَحَرَّكَانِ، وَصَوْتُهَا لَمْ يُسْمَعْ" (اصم ١: ١٣). وسمع الله ما في ذلك القلب الحزين المنسكب أمامه. كان اليهود يكلمون الله بشفاههم، وقلوبهم مُبتعد عنه بعيدًا (إش ٢٩: ١٣). أما هذه فقد كانت شفاتها صامتتين، أما قلبها فكان يتكلم.

الله سمع قلبها، وسمع بكاءها، ونظر إلى مذلتها، واستجاب.

وكانه يقول لها وهي تبكي: "حَوْلِي عَنِّي عَيْنَيْكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي" (نش ٦: ٥). وفيما هي في عمق الصلة بالله، فإن عالي الكاهن ظنها سكرى، وقال لها مُنتهرًا: "حَتَّى مَتَى تَسْكُرِينَ؟ انْزِعِي خَمْرَكَ عَنْكَ" (اصم ١: ١٤). لم يُميز بينها وبين النساء الخاطئات، اللائي كان إبناه يُنجسهن عند باب خيمة الاجتماع!! ولم يُبال أن يجرح شعورها، وهي في أقدس لحظات الصلاة...

حينما وبخها عالي الكاهن، لم يكن فيه روح الله.

ولا كانت له معرفة تمييز الأرواح (١يو٤: ١). لم يستطع أن يُفرِّق بين المرأة القديسة التي تصلي بالروح والمرأة السكرى!

كما أنه تصرف بسوء ظن وبفكر رديء، دون أن يتحقق. ولم يكتف بسوء الظن، بل أضاف إليه أيضًا التوبيخ والانتهاز، كما لو كانت له غيرة مقدسة على بيت الله! ليتَه تصرف بغيره كهذه أو أشد منها في الحكم على خطايا إبنيه...

كانت حنة مذلولة أمام ضرتها فننة، وأمام الله في صلاتها، وأمام عالي الكاهن...

واستحقت أولى تطويات الرب التي قالها على الجبل: "طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ" (مت ٥: ٣). وأيضًا قوله في سفر إشعياء: "إِلَى هَذَا أَنْظُرْ: إِلَى الْمُسْكِينِ وَالْمُنْسَحِقِ الرُّوحِ..." (إش ٦٦: ٢).

أما عالي الكاهن، فلم يرَّ قلب حنة وروحها. فحكم حكمًا ظالمًا قاسيًا! كان من واجبه أن يسألها عن سبب بكائها. كما كانت تنتظر منه كلمة عطف، وهو خادم الله. لكنه فعل العكس. ويعطينا فكرة عن تسرع الكاهن في الانتهاز والتوبيخ...

على أن حنة كانت تحترم الكهنوت، فأجابته في وداعة.

شرحت له حالتها، وكانت تكلمه باتضاع، بعبارة: "يا سيدي... أمتك...". وداعة حنة ردت لعالي طقسه الكهنوتي. لذلك نالت بركته ودعاءه. فقال لها:

"أَذْهَبِي بِسَلَامٍ، وَإِلَهُ إِسْرَائِيلَ يُعْطِيكَ سُؤْلَكَ الَّذِي سَأَلْتِهِ..." (١صم ١: ١٧).

كانت تريد بركة هذا الكاهن ودعاءه، متغاضية عن أسلوبه.

نحن أحياناً لا نطلب البركة إلا من قديسين صانعي معجزات!!

أما حنة فكانت تطلب البركة من الكاهن مهما كان أسلوبه قاسياً. فسمعت

كلمته وفرحت بدعائه.

وفضت صومها، وحزنها وكآبة وجهها ومنحها الرب ابنًا أسمته صموئيل،

أي إسم الله.

الطفل النذير

هناك أشخاص يندرون أنفسهم للرب، كما يفعل الآباء الرهبان.

وهناك من يندره الرب لنفسه كما فعل مع شمشون (قض ١٣: ٤).

* أما صموئيل فقد نذرت أمه للرب، ووفت نذرها.

وربته بالأسلوب وفي البيئة التي تساعد على وفاء النذر.

كان ابنها وحيداً. ومع ذلك كانت صادقة في كلامها مع الله. قالت له:

"إِنْ... أَعْطَيْتَ أَمَتَكَ زَرْعَ بَشَرٍ، فَإِنِّي أُعْطِيهِ لِلرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ" (١صم ١:

١١). وقد كان. فما أن أرضعته، حتى أصدته إلى الرب لم تتأخر إطلاقاً.

ولم تستبقه معها لتتمتع به فترة أطول... ما أجمل قول الكتاب: "إِذَا نَذَرْتَ

نَذْرًا لِلَّهِ فَلَا تَتَأَخَّرْ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ" (جا ٥: ٤).

عِنْدَ صُغُودِهَا مَعَ رَجُلِهَا لِدَبْحِ الذَّبِيحَةِ السَّنَوِيَّةِ" (اصم ٢: ١٨ ، ١٩).

* لهذا نالت بركة ثانية، أن يكون لها بنون آخرون.

فأنجبت "وَلَدَتْ ثَلَاثَةَ بَنِينَ وَبَنَاتَيْنِ" (اصم ٢: ٢١)، حسب دعاء عالي الكاهن الذي قال لزوجها ألقانة: "يَجْعَلْ لَكَ الرَّبُّ نَسْلاً مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بَدَلِ الْعَارِيَةِ الَّتِي أَعَارَتْ لِلرَّبِّ". ولكن لم يكن أحد من الأبناء الثلاثة الآخرين في مثل عظمة صموئيل...

طفولة صموئيل

تربى في بيت الرب بجبته الصغيرة ومنطقته، وهو يخدم أمام عالي الكاهن، دون أن يتأثر بأخطاء حنفي وفنحاس ابني عالي.

إن كان الهيكل في شيلوه قد دنسه إنا عالي، فإن الرب رأى له هيكلًا آخر في قلب صموئيل لم يتدنس قط.

حفظ صموئيل نفسه طاهرًا وسط البيئة الدنسة، يحيا في بيت الله ويخدمه... كان وردة وسط الشوك.

فلا يقل أحد: صعبٌ عليّ أن أعيش طاهرًا وسط عشرات لا تُحصى في الوسط الخارجي...!

كلا فقد حافظ موسى على إيمانه في قصر فرعون، وسط عبادات كثيرة غريبة. وحافظ يوسف الصديق على غفته، على الرغم من الضغوط الخارجية لإسقاطه. وكذلك دانيال النبي في أرض السبي: "جَعَلَ (وضع) فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ لَا

يَتَنَجَّسُ بِأَطَايِبِ الْمَلِكِ وَلَا بِخَمْرِ مَشْرُوبِهِ" (دا ١ : ٨). وأيضًا أبونا نوحًا عاش كاملاً أمام الله، في بيئة زاد فسادها حتى أن الله أغرقها بالطوفان. وهكذا ممكن في أسوأ العصور وأفسدها، أن يوجد أشخاص روحيون وأبرار كان الخير الذي في داخلهم أقوى من الشر الخارجي الذي يحاربهم. والله: "لَمْ يَتْرِكْ نَفْسَهُ بِلَا شَاهِدٍ" (أع ١٤ : ١٧).

وأحياناً يختار الله أطفالاً - كصموئيل - ليكونوا شهوداً لهم.

إرميا حينما اختاره الله "نبيًا للشعوب" كان طفلاً، لذلك قال للرب: "لَا أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لِأَنِّي وَلَدٌ" (إر ١ : ٦). وداود أيضاً كان أصغر إخوته، لما صار مسيحاً للرب. ويوسف أيضاً كان أصغر إخوته...

وبنفس الوضع اختار الله صموئيل الصغير ليكون نبيًا له.

كان ابنًا لامرأة عاقر. وكم من عواقر ولدن أطفالاً عظاماً.

يوسف الصديق، كانت أمه راحيل عاقراً (تك ٣٠ : ١، ٢)

وشمشون الجبار كانت أمه عاقراً (قض ١٣ : ٢). ويوحنا المعمدان أعظم من ولدته النساء، كانت أمه أليصابات عاقراً (لو ١ : ٧). كذلك كان صموئيل... ولكن الله قادر أن يختار الأرض المجذبة ليُخرج منها ثمرًا صالحًا...

وكانت الخطوة التالية، أن يبدأ الله مع هذا الطفل رسالة شَعَرَ بها الناس جميعاً أنه: "قَدْ أُؤْتِمِنَ صَمُوئِيلُ نَبِيًّا لِلرَّبِّ" (١ صم ٣ : ٢٠). فكيف كان ذلك؟ مع أن كلمة الله كانت عزيزة في تلك الأيام، إلا أنها لم تكن عزيزة على

صموئيل.

أراد الله أن يبلغ رسالة إلى عالي الكاهن، فاختر صموئيل لتبليغها. اختار هذا الطفل الصغير ليبلغ رسالته إلى ذلك الشيخ الطاعن في السن، الذي لم يكن مستحقاً أن يُكلمه الله مباشرة...!

فنادى على صموئيل ثلاث مرات. وكانت خبرة جديدة على هذا الطفل الصغير، فظن الصوت صوت عالي الكاهن يناديه. وتنبّه الشيخ إلى أنه صوت الله. فنصحه أن يرد بعبارة: "تَكَلَّمْ يَا رَبُّ لَأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ" (١صم ٣: ٩).

وتكلم الرب. وكانت نبوءة عما سيلحق بيت عالي من عقوبة الرب من خراب البيت وانتهاء كهنوته.

كانت رسالة صعبة خاف الطفل صموئيل أن يوصلها لذلك الشيخ الكبير. ولكن لما ألحَّ عالي، صارحه بها، فقال: "هُوَ الرَّبُّ. مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ يَفْعَلُ" (١صم ٣: ١٨). لم يلقِ نفسه أمام الله طالباً الرحمة والمغفرة، إنما اكتفى بتلك العبارة.

كيف إذاً تمت عقوبة الله على عالي الكاهن وأهل بيته؟

نحميا وعزرا

في العمل الروحي والبناء الروحي

استطاع نحميا أن يبني أسوار أورشليم، ولا يكون الشعب عازًا واستطاع بعزمته التي لا تعرف اليأس أن يحوّل الظلمة إلى نور، وأن يحوّل الحزن إلى فرح. ولكنه لم يكتف بهذا.

كانت هناك نفوس مثل أورشليم: أسوارها مُهدمة، وأبوابها محروقة بالنار، وهي مدوسة أيضًا من الأعداء، وبلا كرامة.

فلما انتهى نحميا من ترميم المدينة، التفت إلى ترميم النفوس...

ولم يُرد أن تكون أورشليم في أسوارها الجديدة، مثل "قُبُورًا مُبَيَّضَةً... مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ وَكُلَّ نَجَاسَةٍ" (مت ٢٣: ٢٧).

وحقًا إن الذين عادوا من السبي، استقروا كل واحد في مدينته (نح ٧: ٦). ولكن كان لا بد للجميع أن يأخذوا من السبي درسًا، وأن يعرفوا لماذا سمح الله بسبيهم وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم.

كان لا بد أن يتلافوا الأسباب التي دعت إلى سبيهم، حتى لا يعود الله فيغضب عليهم ويسلمهم إلى سبي جديد.

كان لا بد أن يتخلصوا من سبي الخطية لقلوبهم، هذا السبي الداخلي الذي أدى إلى سبيهم في بابل وأشور وأرض فارس.

من هنا بدأ العمل الروحي... كان لا بد أن يرجعوا إلى الله، كما رجعوا من أرض السبي إلى اورشليم. ولكن كيف تم ذلك؟

"اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة... وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب" (نح ٨: ١).

أتى عزرا بسفر الشريعة أمام الرجال والنساء. وقرأ فيها من الصباح إلى نصف النهار. وكان لما فتح السفر أمام كل الشعب، وقف كل الشعب. وبارك عزرا الرب، وقال الشعب: "آمين، آمين!". "وَحَزُّوا وَسَجَدُوا لِلرَّبِّ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ"، "وَكَانَتْ آذَانُ كُلِّ الشَّعْبِ نَحْوَ سِفْرِ الشَّرِيعَةِ" (نح ٨: ٦، ٣).

إذا لم يكن الحدث التاريخي الهام، هو عودة الشعب من السبي، إنما عودة الشعب إلى الله. ولم يكن بناء بيت الرب سوى مجرد وسيلة للبناء الروحي الذي أشرف عليه نحميا وعزرا.

لقد قرأوا عليهم سفر الشريعة، "وَفَسَّرُوا الْمَعْنَى، وَأَفْهَمُوهُمْ الْقِرَاءَةَ" (نح ٨: ٨).

ولما سمع الشعب كلام الله، تأثروا وبكوا. فقال نحميا وعزرا والكهنة للشعب: "الْيَوْمَ مُقَدَّسٌ... لَا تَتَوَحُّوا وَلَا تَبْكُوا... لَا تَحْزِنُوا، لِأَنَّ فَرَحَ الرَّبِّ هُوَ قُوَّتُكُمْ" (نح ٨: ٩، ١٠).. ففرح الشعب فرحاً عظيماً، وأكلوا وشربوا. حقاً، إنه للبكاء وقت، وللفرح وقت، كما يقول الكتاب (جا ٣: ٤).

ولكن أهم من الفرح بكلام الله، الفرح بالعمل به.

وهكذا اجتمعوا "بِالصَّوْمِ، وَعَلَيْهِمْ مَسُوحٌ وَثَرَابٌ..." وصلوا إلى الله (نح ٩:

١، ٦ - ٣٨).

لم تكن مجرد صلاة عادية روتينية، إنما صلاة من قلوب منسحقة في التراب، في صوم، ومسوح. وشملت صلواتهم عناصر متعددة أساسية:

بدأوا بصلاة التسبيح "أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ". ثم باركوا الرب على اختياره أبرام، وذكروا الرب بعهدته مع أبينا إبراهيم، ثم عجائب الله معهم، وشريعته التي قدمها لهم على يد موسى النبي.

ثم اعترفوا بخطاياهم أمام الله: "أَبَاؤُنَا، صَلِّبُوا رِقَابَهُمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا لَوَصَايَاكَ" (نح: ٩: ١٦). وأطالوا الاعتراف بخطايا الشعب والآباء أمام الله: "وَصَلِّبُوا رِقَابَهُمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا. فَاحْتَمَلْتَهُمْ سِنِينَ كَثِيرَةً... فَلَمْ يُصْغُوا، فَدَفَعْتَهُمْ لِيَدِ شُعُوبِ الْأَرْضِي. وَلَكِنْ لِأَجْلِ مَرَامِكَ الْكَثِيرَةِ لَمْ تُفْنِهِمْ وَلَمْ تَتْرُكْهُمْ" (نح: ٩: ٢٩ - ٣١). وخنتموا اعترافاتهم بقولهم للرب: "وَأَنْتَ بَارٌّ فِي كُلِّ مَا أَتَى عَلَيْنَا لِأَنَّكَ عَمِلْتَ بِالْحَقِّ، وَنَحْنُ أَذْنَبْنَا" (نح: ٩: ٣٣).

وخنتموا اعترافاتهم وتذللهم، بأن عقدوا ميثاقاً مع الرب.

شرحوا للرب الذل الذي يعيشون فيه. ثم قالوا له: "وَمِنْ أَجْلِ كُلِّ ذَلِكَ نَحْنُ نَقْطَعُ مِيثَاقًا وَنَكْتُبُهُ. وَرُؤُوسَاؤُنَا وَلَاوِيُّونَا وَكَهَنَتُنَا يَخْنَمُونَ" (نح: ٩: ٣٨). وكان أول الذين خنتموا نحميا الترشثا، ثم عدد كبير من الكهنة وقادة الشعب.

"وَدَخَلُوا فِي قَسَمٍ وَحَلَفٍ أَنْ يَسِيرُوا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ... وَأَنْ يَحْفَظُوا وَيَعْمَلُوا جَمِيعَ وَصَايَا الرَّبِّ..." (نح: ١٠: ٢٩).

تعهّدوا بالانفصال عن الزيجات الخاطئة، وأن يحفظوا مواسم الرب وسبوته،
 وأن يقدموا الباكورات والعشور، وما يُخَصّ المحرقة الدائمة وذبائح الخطية،
 وترك السنة السابعة والديون ... (نح ١٠ : ٣٠ - ٣٩).

ونظّموا عمل الكهنوت واللاويين وخدمتهم (نح ١٢).

وكذلك عمل المغنين والحراس والبوابين ... وبدأ أن كل شيء قد ترتب،
 ووُضِعَتْ جميع التنظيمات ... لهذا سافر نحميا، لكي يقدم تقريراً للملك عن كل
 ما عمله (نح ١٣ : ٦).

ولكنه لما عاد إلى أورشليم، وجد أموراً خطيرة قد حدثت تحتاج إلى
 إصلاح.

وهذا يرينا أن كل إصلاح يتم، لا بد يحتاج إلى متابعة.

كان ألياشيب الكاهن المقام، قد هياً مخدعاً عظيماً لطوبيا عدو نحميا
 الأكبر الذي كان له دور خطير في مقاومة بناء سور أورشليم. وقد هياً
 ألياشيب هذا المخدع لطوبيا في المكان الذي كانوا من قبل يضعون فيه
 التقدّمات والبخور والآنية والخمر والزيت ... (نح ١٣ : ٤ ، ٥).

ثم حضر نحميا، وعرف الشر الذي عمله ألياشيب لأجل طوبيا.

وهنا نرى نحميا في حزمه وقوته وغيرته لقدسية بيت الرب.

لقد ساءه الأمر جدّاً، فطرد طوبيا من المكان. وطرح جميع آنية بيت طوبيا
 خارج المكان. وأمر فطهروا المخادع، وردّ إليها آنية بيت الله مع التقدمة

والبخور (نح ١٣ : ٧ - ٩).

كما قام بإصلاح أمور أخرى، إذ وجد أنه في غيابه لم تُعط للاويين أنصبتهم، فهرب اللاويون والمغنون كل واحد إلى حقله... فأعادهم إلى خدمتهم، وأمر بمنحهم أنصبتهم. وأقام حَزَنَةً على الخزائن.

هناك مواقف في الخدمة تحتاج إلى حزم. وإلى يد شديدة مُدبرة.

نحميا هنا لم يُجامل ألياشيب الكاهن، لأنه كان مخطئاً في موقفه من طوبيا ومن قدسية بيت الرب. كذلك لم يُجامل الذين منعوا عن اللاويين أنصبتهم، بل خاصمهم ووبخهم (نح ١٣ : ١١).

ولم يكتف بقوله: "سَاءَ نِي الْأَمْرُ جَدًّا" (نح ١٣ : ٨). بل أخذ موقفاً حازماً. وهذا الحزم جاء من نحميا الذي رأيناه في وقت آخر باكياً ومُنسحقاً (نح ١ : ٤).

أمر آخر خطير جداً وقف أمام نحميا وعزرا، وهو الزيجات الخاطئة.

كان كثير من الشعب، بل ومن الكهنة أيضاً واللاويين لم ينفصلوا عن "شُعُوبِ الْأَرْضِ حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ".. وتزوجوا من الكنعانيين والحثيين والعمونييين والموآبيين وغيرهم "اتَّخَذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِبَنِيهِمْ، وَاخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ..." (عز ٩ : ١ ، ٢).

وهؤلاء الشعوب لهم آلهة غريبة، وكثيراً ما كان لهؤلاء الزوجات تأثيرهن، حتى في أيام سليمان الحكيم الذي قال عنه الكتاب: "أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ" (١ مل ١١ : ٤).

فلما سمع عزرا بتلك الزيجات الخاطئة، اعتبرها خيانة (عز ٩: ٢، ٤).

ومزق عزرا ثيابه ورداءه، وبتف شعر رأسه وذقنه، وجلس متحيراً

فاجتمع إليه كل من ارتعد من كلام الله (عز ٩: ٣، ٤).

كان كلام الله واضحاً في رفض تلك الزيجات (خر ٣٤: ١٥، ١٦). وهذا

هو ما تذكره عزرا أيضاً (عز ٩: ١٢٢)، خوفاً من انتقال الوثنية إلى شعب الله...

صلى عزرا أمام الله وقال في ذلك: "وَعِنْدَ تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ قُمْتُ مِنْ تَذَلُّي، وَفِي ثِيَابِي وَرِدَائِي الْمُمَرَّقَةِ جَنُوتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَبَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِي، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَحْجَلُ وَأَخْرَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَا إِلَهِي وَجْهِي نَحْوَكَ، لِأَنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا... وَلَأَجْلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الْأَرَاضِي لِلسَّيْفِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ كَهَذَا الْيَوْمِ...". ثم قال عبارة مؤثرة:

"قَدْ جَارَيْتُنَا يَا إِلَهَنَا أَقَلَّ مِنْ آثَامِنَا" (عز ٩: ٥-٧، ١٣).

إنها أعمق من عبارة اللص اليمين: "أَمَّا نَحْنُ فَنِعْدِلُ" (لوقا ٢٣: ٤٢).

نعم، في كل عقوبات الله لنا، يُجازينا بأقل مما نستحق... وهكذا ختم عزرا صلاته بقوله للرب: "أَنْتَ بَارٌّ لِأَنَّنا بَقِينَا نَاجِينَ كَهَذَا الْيَوْمِ. هَا نَحْنُ أَمَامَكَ فِي آثَامِنَا".

وكانت صلاة عزرا الباكية والمنسحقة، لها تأثيرها الكبير على كل الناس.

وهكذا يقول الكتاب: "فَلَمَّا صَلَّى عَزْرًا وَاعْتَرَفَ وَهُوَ بَاكِ وَسَاقِطٌ أَمَامَ بَيْتِ اللَّهِ،

اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جدًا... لأن الشعب بكى بكاءً عظيمًا"
 (عز ١٠: ١).

ما أعظم تأثير بكاء الرجل، وبكاء الكاهن.

المرأة كثيرًا ما تبكي. والرجل نادرًا ما يبكي، بل يضبط نفسه.

لهذا فإن بكى الرجل، يكون بكاءه مؤثرًا. قد يحتمل الابن أمه، ولكنه لا يستطيع أن يحتمل بكاء أبيه... فإن كان الرجل مؤثرًا في بكائه، فكم بالأولى إن كان كاهنًا. وكم بالأولى إن كان بكاءه أمام الله، بانسحاق قلب، وثيابه ممزقة، وقد نتف شعره، وركع يعترف بالخطايا أمام الله...

وهكذا قطع الشعب عهدًا أمام الله بترك تلك الزيجات الخاطئة (عز ١٠: ٣).

وانطلق عزرا "وهو لم يأكل خبزًا ولم يشرب ماءً، لأنه كان ينوح بسبب خيانة أهل السبي". وأطلقوا نداء لكي يجتمع الشعب "وجلس جميع الشعب في ساحة بيت الله مرتعدين". وشرح لهم عزرا خيانتهم للرب باتخاذهم نساء غريبة "غير مؤمنة". وأمرهم بالانفصال عنهن. "وقالوا بصوت عظيم: كما كلمتنا كذلك نعمل". (عز ١٠: ٦ - ١٢).

ولم يجمال أحدًا من الكهنة ولا من الرؤساء الذين وقعوا في تلك الخطية (عز ١٠: ١٨).

وكذلك لم يجمال أحدًا من اللاويين (عز ١٠: ٢٣)، ولا من الرؤساء (عز ١٠: ١٤). وجلس لفحص كل الحالات "وانتهوا من كل الرجال الذين

اتَّخَذُوا نِسَاءً غَرِيبَةً.

وبنفس الأسلوب تصرف نحما أيضا:

فعل ذلك مع اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموابيات (نح ١٣: ٢٣). فجمعهم ووبخهم بشدة وعنف، وضرب لهم مثلاً بسليمان الملك، الذي جعلته النساء الوثنيات يخطئ... ولم يُجامل الكهنة في ذلك، بل قال: "اذْكُرْهُمْ يَا إِلَهِي، لِأَنَّهُمْ نَجَسُوا الْكَهَنُوتَ وَعَهَدَ الْكَهَنُوتِ وَاللَّاوِيِّينَ. فَطَهَّرْتُهُمْ مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ، وَأَقَمْتُ حِرَاسَاتِ الْكَهَنَةِ وَاللَّاوِيِّينَ، كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ" (نح ١٣: ٢٩، ٣٠).

وهكذا قام نحما وعزرا بعملية تطهير وتنقية للشعب، وبناء روحي.

الفهرس

٥	مقدمة الكتاب.....
٦	إبراهيم أبو الآباء والأنبياء.....
٦	أهمية أبينا إبراهيم.....
٧	دعوته.....
٨	أول هجرة.....
٩	البركة.....
١١	المكان.....
١٣	ترك من أجله.....
١٤	فضائل إبراهيم.....
١٦	ضعفاته.....
٢٥	نسل إبراهيم.....
٣١	تجربة إسحاق.....
٣٣	لوط (مع عمه إبراهيم).....
٣٣	الفرق بينهما.....
٣٥	لم تسعهما الأرض.....
٣٨	في سادوم.....
٤٦	صموئيل النبي.....
٤٦	من هو صموئيل؟.....
٤٧	أمه القديسة العاقر.....

- ٥٠ صموئيل نذير الرب
- ٥٤ صموئيل النبي
- ٥٩ صموئيل النبي مع شاول الملك
- ٥٩ تابوت العهد
- ٦١ صموئيل النبي
- ٦٤ شاول الملك وبداية طيبة
- ٦٦ التحول وسببه
- ٦٩ صموئيل النبي آخر عصر القضاة
- ٦٩ عصر القضاة
- ٧٠ القديسة حنة
- ٧٤ الطفل النذير
- ٧٦ طفولة صموئيل
- ٧٩ نحميا وعزرا في العمل الروحي والبناء الروحي

في هذا الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد أمين

يحدثك هذا الكتاب عن تأملات روحية في حياة بعض من شخصيات الكتاب،

هي

- إبراهيم أبو الآباء.

- لوط مع عمه إبراهيم.

- صموئيل النبي آخر قضاة إسرائيل وعلاقته مع شاول الملك.

- نحميا وعزرا.

- إنها شخصيات كانت لها مثالياتها في الحياة الروحية، كما كانت لها

ضعفاتها أحيانًا. نضعها أمامك كما هي، كما عرضها الكتاب

المقدس.

البابا شنوده الثالث